وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

السيرة الحلبية

رواية



وليد إخلاصي

السيرة الحلبية

تصميم الغلاف

فراس نعوف

وليد إخلاصي

السيرة الحلبية

رواية

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٠

قصص وروايات

«٤٣»

عن كاتب السيرة

(١)

امتد بساط الحزن يسابق خطوات أيامه التي تعثرت، وكانت تطوي لفافات مهترئة في كهف الوحشة. ها هو خريف الوحدة قدمَ كسلحفاة تورمت أقدامها من الزحف لسنوات، وها هي دفقات الشتاء تنذر بالمخاوف التي يأتي بها الربيع عادة ليحمل الاشتياقات (الربو) هدية موسمية يقدمها إلى (سلام المحارب).

لم يعثر الرجل يوماً على تفسير للعلاقة بين اسمه ولقب العائلة فبقيت مبهمة، فتاريخها لم يسجل واقعة أو حدثاً أشار إلى حرب أو دلّ على محارب باستثناء ما قيل عن جدّه العجوز من أخبار بلغت سلام في طفولته.

قضى الجدّ عبد السلام نحْبه في حفرة، فبينما كان عائداً من مقهى الحارة وقع في كهريز مفتوح فلم يدركه أحد. وفي تلك الليلة فوجئ رفاق المقهى بحكايات جديدة انطلق أحدهم في قصّها

عليهم لتدور حول مغامراته يوم كان جندياً في الجيش العثماني. بطولات في (جنق قلعة) أو في ديار (البلقان). وإذا ما غادرهم انطلق كل منهم في التعليق على أكاذيبه المسلية. ويبدو أن حادث جدّه دفع بسلام المحارب، الذي بات كاتباً معروفاً، إلى التساؤل إن كانت الأعمال التي كتبها امتداداً لمخيلة الجّد الناشطة.

كان بخاخ الربو بذراته يحصي الأيام المقتربة من الصيف ليتوقف الخناق الربيعي الذي يشلّه في لحظات لولا الدواء الذي يلازمه على مدار الساعات فيضع حداً لضيق أنفاسه. ولكن الفصول الأخيرة من فقده لزوجه (سعاد) لم يكن لها علاج بالرغم من ذكريات الحب التي حافظ عليها.

أربعة عقود من الحب والتعاطف والشوق الذي جمع بين جسدين وروحين ما لبث أن انتقل وصالهما إلى المشاركة بين ما يكتبه الزوج وما تقرؤه سعاد. كانت أول قارئة لمخطوطات الكاتب الذي أعلنته المفضل لديها، وكثيراً ما كانت تطلب منه تعديلاً أو تغييراً فيستجيب لها لإيمانه بقدرتها على إبداء الملاحظات الذكية. وهو في قبوله لتلك الآراء ظلّ يخفي تساؤلاً عن تلك المرأة التي ترعرعت في بيت ريفي على سفح جبل ولم تكمل تعليمها الجامعي، فهل كانت الصخور التي ينمو بينها الزعتر البري لتحط على أزهاره أسراب النحل هي التي منحتها وعياً بروح الكتابة الفنية وأهّلتها لإطلاق الأحكام على أحداث

رواية أو تمثيليه للتلفزيون أو المسرح. وعن الوجه الآخر للتساؤل عن سرّ سعاد التي يتأفعى جسدها في الفراش بينما يتحوّل في الحياة اليومية إلى ما يشبه تمثالاً من رخام ينطق بحكمة الاتقان والوقار ويفرض على الآخرين جماله فتتعلق به الأرواح. وخيل لسلام أن امرأته أخذت من شجيرات الورود خصال الاستجابة للرياح لتعود في فترات هدوء الطبيعة إلى شموخ أغصانها، وكانت سعاد تملك حدّة أشواك الورد دون أن تتسبب في جرح أحد.

وحيداً يدور في أرجاء بيته، يمسح بعينيه الجدران والزوايا والمقاعد، الأسرّة والخزائن، النوافذ والأبواب. هو يدور فتخرج له من الفراغ حياة تطل بألوانها وروائحها تتمثّل وهماً ما إن يراها ويتنشقها حتى تدق لحظة الضياع. ومن جديد تتكرر الحيلة التي خدعته، حياة تأتي من الماضي ليشهد معظم أنحاء المنزل سلام يخطف قبلة من خدّ سعاد زوجته في حملها الأول و الأولاد يتعاقبون على بيت الحب كأكمام الأزهار يتفتح الواحد بعد الآخر. الأسرة ما زالت تملأ فضاءات المكان الذي وقع في أحضان حديقة ظلت سعاد تضخ فيها الحيوية إلى أن اختارها ملاك الموت ليختطفها تاركاً وراءه آثارها الباقية عاجزاً عن حمل الذكريات معه. كثيرة تلك السنين كأحجار صقلها الحب فانتشرت في أرض العمر الجميل كتماثيل تهزأ بالزمن.

وفي أيام الوحشة احتلت شباك عنكبوت ما تخيله الرجل الوحيد في الزوايا والممرات، لكنها لم تعق حركة سلام في تجواله التائه. ظلت قدماه تزحف في مسار دوائر لا بداية لها ولا هدف. هي بطيئة كشفت عن تخاذل عجوز كان من قبل حيوياً بالرغم من السبعين عاماً التي منحتها القوة كتابته وزوجه. وها هو في الفترة القاحلة يحسّ بأن جراد الوحدة قد أتى على كل أعشاب أرضه وأشجارها فلم يبق من حياته سوى تراب يابس لا تنمو فيه فكرة أو لغة.

وقف أمام صورة سعاد التي طغى على إطارها لون الجدار الذي كان سماوياً فتحول إلى أزرق ليلي، وكان من قبل يتأملها بصمت إلاّ أنه أخيراً خاطبها بعتاب اخترق نسيجه ألم الوحدة:

"أعترف بان قلمي قد جف يا حبيبه، وتيتَّم بياض الورق".

وصرخ في العتمة التي لم تنجح شمس النهار في تبديدها:

"أخطأ ملاك الموت في الاختيار".

وبالرغم من مرور فصول على رحيلها فقد عاود صراخ الغضب:

"ألم يبلغه نبأ الحب الذي جمع جسدينا في روح واحدة!".

وجعل يتحسس بكفه زجاج الصورة ليدور على وجه سعاد. الخدان يشعان بحرارة سرت في أوصاله، والشعر الناعم الأسود

يتخلل أصابعه فيوقظ حنينه. وكأن إغماضة عيون الزوجين ترافق وصول النشوة إلى ذروتها. سعاد تنضح برذاذ الشوق فيمتلئ جسد سلام بماضي العمر الذي ما عاد مؤهلاً للنسيان، وهتف الزوج إن كانت الحبيبة ستبقى على العهد، آنذاك تجلت له نظراتها في الصورة لتقول إن كنتَ تشك في ذلك.

وتكرر وقوفه أمام الجدار الآخر يتأمل أولاده. شجرة الحب التي حملت أغصانها الثمار، كانت في صور الأبناء الثلاثة. تأملها فكأنهم يتطلعون إلى أمهم، وما إن يكتشف أنهم ينظرون إليه حتى يدرك أنّ العائلة قد اجتمعت في دائرة لتبادل المحبة. صفية، بلال، حمزة، كان سلام يسمعهم يهتفون من أعماق غربتهم باسم أمهم الذي ظلّ من أيام الطفولة إلى الشباب يُنطق بماما ثم سعاد، وإذا بلغوا سن الفتوة بات اسمها: ماما سعاد.

صفية باتت أماً ترعى أسرتها في الدار البيضاء المغربية ، وأصبح بلال مهندساً استقر في كندا، وتحول حمزة إلى بحار على سفينة تجارية فلا يسمع صوته إلاّ من الموانئ التي يقف فيها، وكانت رحلته امتدت إلى سنوات دون أن يحطّ رحاله في بيت أهله. توزع الأبناء في أرجاء العالم، وبقي الأب عاري الأغصان كشجرة تذهب في أرضها إلى يباس لا مفر منه.

كان العزاء في يومه الثاني حين حضرت صفية وبلال من بلديهما. البكاء على الأم دام أياماً قليلة من بعدها عاد كل منهما

إلى بلده، فتأكد لسلام أن أبناءه ما عادت لهم صلة بمنزل الطفولة، وبخاصة أن حمزة في اتصاله الهاتفي بعد أسبوع من علمه بوفاة أمه انفجر باكياً إلاّ أنه لم يحضر.

جلس في مدخل البيت مطلاً على الحديقة، وكان ليل صيف حلبي تهب عليه نسائم رقيقة أشفق بها الفضاء الممتد أمامه على الرجل الوحيد. هادئاً كان يقرأ في الظلام في صفحات الماضي فلم يستطع أن يكتم حرقة القلب فنادى بصوت جريح:

"رحيل الأحبّة جرح لا ينفع له دواء".

وتخيل نفسه واقفاً على مرفأ يخصه، نسائم البحر لا تحمل إليه علائم سفنه العائدة. ما من شراع واحد يطل من الأفق، فكانت لعبة الغياب بين استسلام وبين ما يأمل. هي اللعبة التي لم يحسب الحب لها حسابه. صاح سلام فلم يخرج من داخله صوت:

"لم قسوة الغياب تلاحقني ؟".

وتقدم دون تفكير متجهاً إلى غرفة المكتب التي ظنّها تنسى وجوده.

دخل المحراب الذي كاد أن يقفل على نفسه وقد حافظ على رائحة الكتب والهجر الطويل. تأمل الرفوف التي وقفت فيها الكتب على استعداد للهتاف بعودة صاحبها. هتفت بالتحية للعائد.

وعلى سطح مكتبه الخشبي ارتعشت أوراق تدعوه إلى تزيينها بالكلمات. وقف سلام في مركز دائرة محرابه الذي تعبد فيه سنوات طويلة، وما لبث الحنين أن سحبه إلى الجلوس على المقعد الجلدي ليواجه الأوراق البيض يدفعها الاشتياق.

الذكريات تتعاقب متوالية على شاشة رؤيته، بينما عيناه تتفحصان الزوايا والمساحات التي تحيط بها في الغرفة، فيظن أن الذكريات ما هي إلاّ عناكب بنت شباكها في الزوايا، إلاّ أن الحقيقة كانت في محاولته للهرب من مواجهة المساحات المفتوحة التي تسمح بإسقاط الذكريات عليها بوضوح. بات سلام مركزاً على سطح مكتبه يقلب الأوراق البيض التي تركها منذ شهور وهي مازالت تحتفظ بعذريتها. تذكر معاشرته لكل هذه الأوراق لينجب منها الكتب التي أخذت اسم رواية أو حكاية أو تمثيلية عرضها المسرح أو شاشة التلفزيون. هل بات العجز بديلاً من الحيوية؟.

ومال ظهر المقعد إلى الخلف محدقاً في السقف فكان سداً. عاد من جديد معتدلاً في جلسته متحسساً ذراع المقعد الذي لم يفارقه منذ أيام الكتابة الأولى فهو الحضن الذي ضمه بحنان كما فعلت سعاد.

استعرض رفَّ الكتب في المكتبة قربه، واتجه إليه يقلّب النظر في عناوين مؤلفاته فكأنه يراها لأول مرة. وابتدأت مفاتيح

العناوين تنفرج تدريجياً عن أبواب الكتب المغلقة . كتابه الأول (ألف ليلة وليلة) كان أول عمل عرف به فاجتذب اهتمام القراء والنقاد إلى حداثة وقائعها، فقد صور شهرزاد معاصرة وهي تضع حداً لشطط شهريار وطغيانه السياسي والجنسي، وأطلق سندباد ليجوب العالم بحراً وبراً وجواً باحثاً عن المعرفة في كل الأمكنة التي تنتشر فيه شعوب تحتفظ بثقافتها، وإذا عاد من رحلاته اكتشف جوعه فيعود مسافراً من جديد. وشجعه نجاح كتابه الأول على اصدار رواية (حي بن يقظان) الذي استند فيه إلى العمل الذي كتبه (ابن طفيل الأندلسي)، فكانت بروح العصر وإن حافظت على نهج ابن طفيل في مسألة الخلق والخالق، فصورها سلام المحارب متمثلاً الزمن الحاضر بأحداثها المشوقة ولغتها الأخاذة، فكان أن حقق انتصاراً في عالم الأدب وضعه مبكراً في صفوف أهم الكتّاب.

تابع الكتابة بهمة أكبر، ولكن الاهتمام بنموذجين من أدب التراث تحول إلى مرحلة معاصرة من التاريخ الحديث لسورية الذي أمضى فترة من حياته يوليها اهتمامه. تحولت سيرة (إبراهيم هنانو) ونضاله ضد المحتل الفرنسي إلى سجل من الفانتازيا الوطنية، وجعلت من رجال الثورة نماذج بطولة تغنّى بها جيل من القراء الشباب وأدهش شيوخاً ممن عاصروا كفاح هنانو لإيغالها في المبالغة إلاّ أنهم لم يستبعدوا حصولها مشاركين

أبطالها شرف الأحداث. وبمثل تلك السيرة كتب روايته عن (صالح العلي) ليتبعها بعمل آخر عن (سلطان باشا الأطرش).

وانتقل المحارب إلى المرحلة من التاريخ الأقدم، فكانت روايات كتبها عن مدينة حلب وأخريات عن المدن التي سقطت أمام زحف المغول، وما لبثت بعد قرون أن شربت ماء مالحاً من حروب الصليبيين فلاقت الويل في بلاد الشام. وشهدت صفحات عمله وقوع المدينة مع غيرها في قبضة العثمانيين لتجمد حركة التاريخ عند أهل حلب ويخيم عليهم التواكل الكسول بينما يستيقظ قلة من رجال يحاولون نفخ الجمر في نفوس الناس. وفي عمل آخر صور تسلل الجيش الفرنسي الذي وقف قائده على قبر صلاح الدين ليهتف شامتاً بأنا قد عدنا، وقد حملت روايته الوثائقية عنوان (خروج الفرنسيس من أرض التأسيس) التي لم تنته فصولها منذ أيام مرض زوجته واحتضارها لشهور عديدة، وهكذا توقف سلام المحارب عن الكتابة وما عاد يمسك بالقلم.

ومنذ انتهاء أيام العزاء تمكنت الوحشة من احتلال فضاء البيت بالرغم من تردد رفاق قدامى ورجال إعلام وأدباء للتخفيف عن حزن سلام المحارب، فما كان المحزون ليسمح لهم بإقامة لأكثر من دقائق، ينفضّ من بعدها المعزّون الذين وجدوا عزوفاً عن الخوض في أي حديث. سجن المحارب نفسه فلا يغادر البيت إلاّ لطعام يحضره أو دواء يشتريه، أو لزيارة قبر الراحلة،

فلم يعد يتوقف عند مكتبه لشراء صحيفة أو كتاب كعادته السابقة، وما عاد يرتاد المقهى الذي تعود فيه لقاء الأصدقاء أسبوعياً. ومنذ ذلك اليوم بات أشبه بالدرويش يطوف في الدهاليز الكئيبة ينشد في مواقع التذكر ومواقفها ما يشبه أشعار الحنين إلى حبيب طواه التراب، أو إلى أبناء أسدلت عليهم ستائر الغربة.

كان قد قضى شهوراً يتخذ كنبة في الصالة فراشاً، وليلة دخل غرفة النوم التي شاركته فيها سعاد، هجمت حرارة الصيف من النافذة لترش جسد سلام بالعرق. يتقلب في نومه فلا يعرف جسده استقراراً على حال، إلاّ أنه انتفض في فراشه محدقاً في الظلام، كان يخاف الانزلاق في هوة سحيقة انفتحت تحت قدميه فتماسك وهو يتعلق بحبال الظلمة، إلاّ أنه ما لبث أن صحا بشكل كامل، وكان الفجر لم يأت بعد. طرق سمعه صوت سعاد ليكون أقرب إليه من دقات قلبه. كانت تهتف:

"ماذا يحدث لك أيها الحبيب؟".

ويخترق عتابها جلده ليعتصر داخله:

"توقف قلمك عن الكتابة التي أحببتها، فهل ننال عقوبة الفراق؟".

لبث سلام جامداً في فراشه متيبس الحنجرة بينما جسده مازال ينضح بالعرق، وكان سمعه مازال بانتظار سعاد تتابع تساؤلاتها.

ظل يتوقع أن تفعل وتناديه، إلاّ أن خيوط الفجر المتشربة لظلال الضوء غزلت العتمة بالنور أسدلت الحجاب على عتاب سعاد الرقيق. وبينما يستوي جالساً في السرير كان يستعيد ما سمعه منذ قليل، وإذا به يتحلل في فضاء الغرفة فلم يستطع لملمته. صباح باكر يبدو وكأنه ينذر بما يستجد من احتمالات قادمة.

(٢)

بدا الحارس المقيم في المقبرة كوسيط معتمد بين زمنين محيّرين، أحدهما فوق التراب والآخر تحته. سنوات لا تعرف لها بداية هي التي رسمت خطوطها على وجه الرجل العجوز بينما احتفظ بشباب اطمأنّ لمهنته، بعكس ما آلت إليه القبور المتناثرة على وجه التلال وقد حولتها التضاريس المتباينة في ارتفاعاتها إلى ما يمكن تسميته بتجاعيد الزمن.

في ذلك الصباح المبكر لم يشأ الحارس أن يسأل القادم عن حضوره المخالف لنظام الزيارة الأسبوعي، وكان قد درج عليه في الأشهر السابقة. لم يعلق سلام المحارب على دهشة الحارس الظاهرة على وجهه، واكتفى بإلقاء التحية. حمل غصن زيتون متقدماً من قبر سعاد.

كان ما يليق القبر به هو ما سماه الحارس وكثير من الزوار بالضريح. دروب من الحصى الملون طوقت القبر، بينما أربع أشجار من السرو غرست على الأطراف كحراس مستنفرين دوماً لتقديم الاحترام للراحلة. وكالعادة هرول الحارس بإبريق الماء ليرش به حجارة القبر المرمرية فيشرق لمعانها مضيئاً كالوهج بين حجارة القبور الكلسية وقد لبست الكآبة.

(جبل العظام) مدفن قديم امتد إلى قرون بعيدة، وقد زحفت قبوره على تلال وسفوح. ومنذ سنوات عديدة كان المشيعون يظنون أن جبل العظام ما عاد بقادر على استقبال وافد جديد، إلاّ أن الممرات نفسها تحولت إلى أماكن للدفن، مما دفع الناس إلى تخطي القبور فاستنكر مشايخ ومتدينون أمراً كهذا فحرموه. واستخدمت قبور قديمة عائلية لاستقبال أفراد من الأهل. وكانت المقبرة كما يحلو للناس تسميتها بجبل العظام الذي وقر في أذهانهم أن التلال المتجاورة قد نشأت من تراكم عظام أهل حلب المقاومين لعدوان الغزاة الذي تكرر على مرّ التاريخ.

مسح سلام المقبرة المتناثرة بعينيه، وكان قد فرغ من وقوفه على الضريح باحترام الجندي المنضبط، الاّ انه تساءل بضيق عبّرت عنه عيناه:

"سُدّت علي المنافذ لأدفن ذات يوم بالقرب منك"

وفيما يجلس على قاعدة قبر مجاور، جعل يحاسب نفسه على خطأ اختيار المثوى الأخير لسعاد. هو لم يحسب للزحام وضعه الذي حرمه من مجاورة الحبيبة. وفجأة انفرجت أسارير وجهه للمرة الأولى منذ شهور، هو يسائل نفسه إن كانت الجيرة بالعظام ما يفكر به، أم أن التصاق روحيهما هو الذي سيستمر باقياً على حب لم يؤثر فيه شيء. وكانت دماء قد تسربت في أوصاله تنعشها، فأقبل على الضريح من جديد ينظر إليه وكأنه حديقة أو واحة وسط جبل العظام ترعاها سعاد كما فعلت في حديقة بيت الزوجية. جعل يتمتم بالدعاء للحبيبة التي ظلت تحيا بداخله، وأن الراقدة تحت التراب هي ظله المرافق له. هتف سلام فاستجابت على إيقاع صوته أشجار السرو بالتمايل:

"لن يبعدك الرحيل عني".

كان الحارس يقف على مسافة بعيدة يراقب تصرفات الزائر الذي تعود سلوكه من تصرفات توحي بأنه استثنائي، إلاّ أن هتافه، بالرغم من جهله بالكلمات، دفعه إلى التساؤل عن الوقار الذي كان في زياراته معروفاً به، فلم يجد له سبباً في الخروج عنه، إلاّ أنه لم يشأ أن يبدي شكا في عقل من أودع زوجته التراب، ظلّ يردد لنفسه كلمات الأسف على تصرف الرجل الذي يكرمه بالمال في كل زيارة له ما لم يشهد كرماً مثله من زوار القبور. وكان يقول له آمراً بسقاية أشجار السرو لأنها تؤنس

وحدة المرحومة، بينما الحارس يردد في سره: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، بينما في ذلك الصباح كان يغادر دون أي طلب بالسقاية.

خرج سلام من بوابة جبل العظام ليواجه الشارع المزدحم بالسيارات المتلاحقة. كان مرفوع الرأس مستقيم القامة وقد تجاوز للمرة الأولى موقف الاستسلام لضعف الحزن، ومستعيداً تماسكه. وقف على الرصيف ينتظر فرصة السماح له بالانتقال إلى الطرف الآخر، إلاّ أن سيل السيارات لم ينقطع لفترة مشكلاً جداراً آخر كما يفعل سور المقبرة من خلفه. وهكذا أحسّ بالحصار الذي يطوقه دون أن يخرجه من حالة الارتياح التي ظهرت فجأة في حياته. ظلّ على انتظاره لفرصة ينسل فيها عبر سيل السيارات، وقد نجح في آخر المطاف ليعبر الشارع إلى الرصيف الآخر وهو يردد لنفسه:

"ما زالت عزلتي هي أفضل ما يحدث لي في هذه المدينة المجنونة"

من جديد يعود إلى بيته فلا تعيق حركة الشوارع هياج الصور التي تعاقبت على مخيلته، كأنه استعاد أيام الكتابة. دخل غرفة المكتب في الدار فاستقبلته الكتب كفريق من الجنود المنتظمين في الرفوف، ودعته الأوراق البيض لتسويدها بالكلمات. كان سلام المحارب قد أصبح جاهزاً لاستعادة أيامه السابقة.

وكان سلام في عودته صباح ذلك اليوم قد فتح باب منزله فإذا بكهف البيت المعتم قد تحول كالسحر إلى فضاء من ضياء، وكأن جيشاً من فراشات مضيئة يحوم في المكان. انفتحت روح سلام على عالم آخر اختفت منه وحشة الأشهر السابقة. وكانت أولى خطوات سلام في البيت تمشي على ما يشبه المرج الذي تجاوبت أعشابه لوطء الأقدام اللين. انقلاب في المكان تغير فيه من غروب إلى إشراق كما كان حاله أيام الحب والتجمع الأسروي. هو يوم جعل الطريق إلى غرفة المكتب معبراً سيؤدي إلى ما يمكن الاعتقاد أنّه حديقة المعرفة الممتعة.

مرت على سلام المحارب فترة من احتضان الكرسي الدوار له. هو يدور حول نفسه في مروره بلحظات اختمار لأفكار متفرقة لم تتوصل إلى تجمعها لتكون بداية لعمل جديد يبدأ به نصاً يهبه للأوراق التي ملّت الانتظار. فجأة تكلم الهاتف يوحي رنينه بصوت قادم من واحد من الأبناء، رفع السماعة بفرح ينتظر سماع أحدهم، لكن الأمل خاب. كان الصوت غريباً قدّم نفسه بتعريف يقول إنه مدير مكتب لصاحب محطة تلفزيونية، لينتقل إلى صوت آخر هو صاحب المحطة. كان الترحيب بالكاتب سلام المحارب الذي أعلن عن إعجابه بأعماله، وداعياً لزيارة المحطة الفضائية التلفزيونية في (دبي) بأسرع وقت ممكن من أجل التشاور حول مسلسل يكتبه المحارب.

نافذة فتحت في هذا اليوم. نافذة كانت قد أقفلت لتدخل النسائم على روحه ولتطل من رمادها على حياة أخرى. أحس الرجل بأنه مقبل حقاً على مرحلة جديدة من شيخوخته التي بكرت بفقد من يحب، موتاً أو غياباً. لم يتحرك من كرسيه ومصغياً لأصوات تتضارب في أعماقه:

"لم أنت من دون عشرات الكتّاب في أرجاء الوطن العربي؟"

وتسرب صوت الحبيبة إلى داخله يطغى على ما حوله:

"تعلم أنك الأفضل يا زوجي الحبيب"

وظلت تهمس لأكثر من مرة:

"اختيارك من المحطة سيعيدك إلى سيرتك السابقة"

وسمع صوته تردده الجدران:

"هل يمكن لي أن أعود من غيرك؟".

"ستعود.. ستعود. أعلم أنك عائد".

وملأت كلماتها روحه تصرخ في الأرجاء الواسعة:

"الكتابة تلغي يأسك. اكتب يا حبيبي من أجل حبنا الذي ما زال باقياً".

تحرر سلام من الأصوات بوقوفه على قدميه، وإذا ما مشى في الغرفة تأكد له صمت الفراغ من حوله. وإذا ما قادته

الخطوات إلى صالة المعيشة وقف أمام صورة سعاد. طويلاً تأمل الحبيبه وبلهفة المشتاق جعلت عيناه تجولان في مساحة الوجه الذي فرشت عليه البشاشة، وفي خصل الشعر الذي كان تاجاً يليق بأميرة. هتف بفرح صامت:

"أظنني قد عدت".

وباندفاع الشباب الذي استعاده هتف بأنه عاد. وجعل يقيس الصالة بخطوات واثقة، فإذا ما ألقى أنظاره على صور الأبناء لاحقته عيونهم بإعجاب. تلك اللحظات من الحيوية طوت أيام الوحشة. الفارس الذي ترجل منذ شهور عاد من جديد إلى امتطاء جواد يتوجه به نحو المستقبل.

(٣)

قفز الزمن كبهلوان يتخطى حواجز الأيام المقيدة بنظام، وحمل سلام المحارب إلى شركة الطيران ليتسلم بطاقة السفر إلى دبي. قلَّب النظر في هذه الوثيقة التي أكدّت جدية الموقف الذي سيواجهه. ولم يكن سلام قد ألف السفر خارج حدود المدينة إلاّ لعدد من المرات كانت ثقافية في مدن سورية. وستكون رحلته إلى دبي الأولى خارج الوطن فيستعيد حياته المنتجة التي لم يبق لها من عنوان سوى الكتابة.

الطائرة تنهض به من مرقدها على أرض مطار دمشق. وإذا ما التحمت بالفضاء أحسّ سلام بمعنى القيامة من كهف الحزن المظلم والدخول في عالم الضياء، ولتصبح هذه اللحظات مدخلاً إلى واقعية الولادة الجديدة للكاتب الذي أسقط قلمه من يده وها هو يستعيده.

كان ليل دبي، الذي حومت الطائرة في سمائه، يشع بجواهر الأضواء، ويعلم المسافر أنه مقدم حقاً على حديقة النور التي سيقطف منها ثمار التغيير الموعودة، وسيستعيد حياته التي خلق لها. على أرض المطار حطت الطائرة لتسير. فكان سلام يستعيد المحطة السابقة في المدرسة الثانوية وكأنها صور متناثرة. في البداية كان من رفاق المدرسة من لقبّه بالخجول، عاد آخرون إلى تسميته بالحكواتي. وكان رفاق يصفونه أحياناً بالخيالي. كان سلام المحارب إذا اجتمع بشلة من الطلاب يبدأ برواية حادثة تبدأ بواقعية لتنقلب في تسلسلها إلى ما يشبه الخيال أو الوهم المقنع. وفي استعراض واقعة ما يشد مستمعيه إليه فإذا ما قارب نهايتها تحول الإصغاء إلى دهشة تحمل الإعجاب بها أو الإنكار لمصداقيتها. وباتت له جاذبية في القص وهو يتلاعب بحكاية يأخذها من (ألف ليلة وليلة) الأصلية ليعجنها ويخبزها على طريقته، مستفيداً من جهل معظم المستمعين حكايات ألف ليلة وليلة، وإذا ما فوجئ بأحدهم يقول له لنرجع إلى نصوص الكاتب

الأصلي أحس بالاهانة. وإذا ما أورد خبراً من إذاعة لندن أو صوت العرب فإنه يأتي على ذكره وكأنه حكاية مشوقة، وهكذا بات رجال سياسة عرب أو أجانب أبطالاً في حكاياته ، عاتبه عليها البعض وأيده الآخر. واقتنع كثير من الرفاق بوجود شخصيات من أحياء حلب القديمة وهو يستعرضها، فالواحد منهم شكل حكاية مضحكة أو غرائبية يمكن تصديقها بقدر ما كان تكذيباً لها.

وفي مسيرة الطائرة كانت بقع النور المتناثرة على الأرض وقد توالى بريقها، استيقظت مرحلة من شبابه، عادت مؤلمة. حريق شبّ في مستودع للأغذية الذي امتلكه الوالد دفع بالفقر لدخول حياة الأسرة، مما اضطر سلام إلى الانتساب إلى كلية الحقوق بدمشق التي لا تفرض عليه انتظام الحضور، فعمل كمعلم في الريف لمساعدة أهله، فكانت حياته في القرية فرصة للاستزادة من القراءة في الليالي التي لا يسمع فيها سوى نباح الكلاب. وبالرغم من أن قدر المحارب أن يكون طالباً في كلية الحقوق، إلاّ أنه مع الانتقال من علم إلى آخر ازداد تعلقاً بتلك المعارف الجديدة. تاريخ القوانين والتشريع دفعه إلى قراءة أوضاع الناس من حوله على ضوء ما قدمته الأنظمة من عهد (حمورابي) مروراً بالشرائع السماوية ومن بعدها القانون الفرنسي وما تبعه من إجراءات قانونية تمثل دولاً وقوميات

ومناهج دينية وسياسية سمحت لخزانة سلام المحارب أن تمتلئ بالقوانين المختلفة، إلاّ أنها لم تدفعه إلى ممارسة المهنة، وإن كانت قد فرشت الطريق أمامه للاهتمام بالمجتمع الذي يعيش فيه، وكان واقعه وتاريخه قد شكل عصباً هاماً يشدّ من عزيمته الأدبية.

الطائرة تزحف، وأخيراً توقفت. وما تزال الصور تركض في رأسه، محطات الماضي تتزاحم في تلك الصور. تطل بدايات الكتابة التي حققت له نجاحاً، وها هو يفرض اسمه منذ صدور أول بحث له عن الموروث الحكائي في مجلة معروفة. لم يتوقف لتكون أول رواية له أعاد فيها كتابة ألف ليلة وليلة بأسلوب معاصر دفع النقاد إلى مديحه، وحقق انتشاراً في أرجاء متعددة من الوطن العربي. وكانت صحيفة يومية قد ظهرت فيها تلك الرواية مسلسلة تابعها القراء بمتعة.

وهكذا قرر احتراف الكتابة لتكون مهنته التي بات يعرف بها. مقابلات إعلامية في الصحافة والإذاعة والتلفزيون، ودعوات إلى لقاء في المدارس وقاعات للمحاضرات. تحولت لياليه المعاصرة إلى مسلسل في الإذاعة لحق بها التلفزيون. وجد سلام المحارب نفسه كاتباً يشاد به بعد أن كان مركزاً لتوليد الحكايات في دائرة رفاق المدرسة الضيقة.

ما زال جالساً في الطائرة بانتظار آخر راكب ليكون بعده، ولم يتوقف شريط الذكريات. الصبية سعاد تشير إليه بحيوية الأنوثة أن قف عندك، فأنا من تبحث عنها من دون نساء الدنيا. حول الحب الصاعق تلك الصبية إلى زوجة، وأصبحت سعاد عاملاً في دفع الكاتب إلى الاستمرار في العطاء، وكان اهتمامها بإنتاجه يماشي تفجر ينابيع أنوثتها وحبّها للأسرة زوجاً وأبناء. امرأة تذوب وتذوّب، أم تعطي ولا تأخذ، سيدة الحنان والحكمة فكانت عصية على المقارنة بنساء عرف عنهن أو قابلهن أو أنه فشل باستحضار خيال له علاقة بامرأة.

الإضاءة في ممر الطائرة كانت تكشف عن عشرات الرجال والنساء والأولاد وهم يمرون قربه للمغادرة، فلا يتحرك المحارب من مكانه على المقعد محاولاً أن يبقي على تدفق شريط الذكريات. خرج من باب الطائرة فلم يحمل معه أي مخزون لصور الماضي، وكأن الوصول إلى دبي لن يسمح له بشيء سوى ما دعي من أجله.

وابتدأت رحلة داخل السراديب المضاءة في المطار ، ونقلته سلالمه المتحركة فكانت عيناه تلاحقان الإعلانات المدهشة على جدران الطريق الذي خيل إليه أنه لن ينتهي. فنادق وبنوك وصور سيارات لم يشاهدها من قبل كانت تشع بالنور، إلاّ أنه توقف عند إعلان اسمه على ورقه رفعها واحد من الرجال، فكانت نهاية فترة قلقه.

(٤)

خيل للمحارب أن المطار هو المدينة، بل إن دبي لم تكن حاضرة وحدها في جوف ذلك الفضاء المترامي الأبعاد، بل أن العالم من كل بلد وقارة قد تجمع فيه. وكأنه القاموس البشري الذي نقرأ فيه الصفحات التي ملأت أسطرها المفردات المختلفة. ملامح عربية وأوربية، يابانية وأفريقية وغيرها من أرجاء العالم، وتكّون ما يشبه الكوكتيل، وهكذا تحولت الممرات والمنعطفات إلى بقع متحركة استقطبت بشراً يذهبون ويجيئون، يعبرون دون أي تواصل، فكأن المطار الذي لم يكن له علاقة بمخيلة سلام المحارب التي عملت على تصوير ذلك الفضاء المتقدم بهندسته وجماله عاجزاً عن تذويب الناس كما يفعل الكوكتيل.

وارتسمت ابتسامة على وجه المحارب ملاحقاً خطوات المرافق حين تذكر الزحام في شوارع مدينته حلب. كان يهرب من ذلك الزحام إلاّ أنه قرر أن يواجه مشهد المطار كمن يتابع فيلماً امترجت فيه الحركة بالألفة فما عادت حلب تشبه عالم هذا المطار.

وبالرغم من سنواته السبعين فإن سلام المحارب كان يحسّ بحيوية الشباب كمن امتصّ حداثة المطار وهي تساهم في دفعه

إلى التفكير في المستقبل خارجاً من إسار الماضي. باتت محطة فضاء مطار دبي مرحلة تفصل ما فات عن ما هو آت.

وما حدث لسلام المحارب من دعوة المحطة الفضائية له، والانتقال جواً من أرض إلى أخرى، داخلاً في زمن ينوس بين الإدهاش والغربة، دفع بالرجل إلى الإحساس بتغيير لم يخطط له. وإذا ما انتهت إجراءات الدخول إلى دبي خرج من عالم المطار الغرائبي لتلفح وجهه حرارة الجو في ليل المدينة، وليشعر بأنه ما عاد فرداً في كومبارس يؤدي دوره الثانوي في شريط سينمائي للخيال العلمي، كتب وأخرج وصور في مطار دبي. وفي الطريق إلى الفندق أثار الليل في نفسه تساؤلاً عن تلك القدرة في زرع جنّة آلية مكيّفة وسط رمال الأرض الممتدة بين شاطئ البحر وأفق الصحراء. سيارة الليموزين التي استقلها كضيف مميز، ومن بعدها صالة الفندق الواسعة جاءت لتخفف من تساؤله ذاك وليعلم بأن رحلته قد وصلت إلى نهاية المطاف، وليستعد إلى لقاء الغد.

كان الليل قد انتصف لحظة دخوله الغرفة. الجناح الذي بات نزيلاً فيه أكد من جديد أن دعوة المحطة الفضائية تذكره بأهميته ككاتب، وتثير بداخله ما يشبه الخوف من ألاّ يستطيع تقديم مسلسل تلفزيوني وفق متطلبات المحطة، إلاّ أنه قال لنفسه بمرح ساخر:" لا أخشى إلاّ أن أقبل ما تريده المحطة مني".

وبمثل تلك الثقة بالنفس تمدد المحارب على السرير الملكي فاتحاً ذراعيه وساقيه، وكانت عيناه تلتصقان بالسقف فيدُاعب أجفانه تماوج الألوان مع أنوار الأباجورات وإضاءات الزوايا المخفية. وفي دقائق كان سلام المتعب يسبح في بحيرة النوم.

وقد فوجئ في اللحظات الأولى من صحوه الصباحي أنه لم يبكر، واكتشف أن ليلته الطويلة قد مرت عليه دون منام أو كابوس، وهو الذي اعتاد في الشهور السابقة على الأحلام المقلقة أو المرعبة. كتب في دفتر ذكرياته ما يشبه اليوميات وأن ليلة دبي الأولى قد مرت عليه كالسديم الأخرس مما يشير إلى أنني مقدم حقاً على مرحلة أخرى من حياتي، وإن كنت أتمنى أن تطل عليَّ سعاد من ظلام السديم لأتمكن بنور الحبيبة من وضع أقدامي على الطريق الصحيح، وفي الأحوال كلها بت على يقين من أن خطواتي ستمضي قدماً باتجاه مرحلة جديدة تحفظ لي القدرة على الاستمرار في الكتابة.

اكتفى بفنجان الشاي على الإفطار. جعل يرشف منه وهو يطل من نافذة الجناح في الطابق العشرين على الشارع العريض والذي لم تكن له نهاية. الأبراج ترتفع على جانبيه والزجاج يلمع مشكلاً جدرانها السامقة. وجعل الزجاج يحيل أشعة الشمس إلى بريق زئبقي، بينما أشجار النخيل التي توسطت الأوتوستراد تؤكد تفوق الأبنية العالية على ما تمنحه الطبيعة من اخضرار يجاهد في الاحتفاظ بلمعانه مع حرارة الشمس الغاضبة.

وانطلق الهاتف بالرنين الذي نقل إلى سمعه صوت رجل قال إنه بالانتظار في اللوبي لاصطحابه إلى مكاتب المحطة التلفزيونية. لبى النداء. وفي البهو لمح إعلاناً باسمه يحمله شاب يرتسم الترحيب على وجهه لحظة المقابلة وهو يدل على نفسه. مضى الاثنان في سيارة بيضاء رباعية الدفع وقد انطلقت من قبو الفندق، وكان المرافق الذي جلس بالقرب من السائق لا يتكلم. المحارب كان في نعيم السيارة يراقب جحيم الشارع، حين استمر في السير سأل المرافق إنْ كانت زيارة دبي هي الأولى، أجاب المحارب بالموافقة فالبشر لا يتجولون في الشوارع، فيعلق المرافق بقوله ان الله خلق التكييف في البيوت والفنادق والسيارات فلا حاجة للناس أن يمشوا على أرجلهم، وقال المحارب إن الناس في دبي محظوظون، بينما كتم في نفسه ابتسامة ساخرة.

وبعد زمن لم يحسب له توقيتا توقف هدير السيارة فاستيقظ سلام من إيقاع الطريق. وفي ساحة واسعة تصدَّرها بناء منخفض انتشر على قوس، وبدا له أنه حضن فتح للقادمين ذراعيه ليرحب بهم. وإذا ما وجد نفسه في صالة الاستقبال تقدمت منه صبية تلمع عيناها المطلتان من دائرتي الكحل الذي لا بد أنه منح عباءتها سواداً لامعاً. واشترك ترحيبها وهي تنطق باسمه مع إشراقة وجهها الخمري، داعية إياه برقة أميرة إلى

قاعة اجتماعات حسبها للوهلة الأولى مخصصة لأعمال وزارية. كان أثاثها من طاولة بيضاوية كبرى تستقطب من حولها مقاعد جلدية تليق باجتماع تتخذ فيه أخطر القرارات الحاسمة. وعلم آنذاك أنه مقدم على مواجهة أمر له شأنه.

(٥)

وحيداً في القاعة التي اكتست جدرانها بخشب لا بد أنه الجوز الذي أكد على المهابة والانغلاق على ما يمكن أن يتسرب من حديث. وحسب المحارب ما يمر عليه من دقائق ممطوطة انتظاراً يشبه ما يسبق إعلان نتائج الامتحان. وشغل نفسه بالنظر إلى لوحة زيتيه كبيرة تظهر عدداً من السفن التقليدية ترقد على سطح خور دبي لتبدو وكأنها بتاريخيتها تحاور حداثة الأبراج المطلة على الخور، ويجد المحارب نفسه شريكاً في هذا الحوار. يعجب تارة بتلك السفن، ويدهش تارة لعلاقة في عقد الصلة بين أرض دبي وسمائها. يحسّ فجأة بأنه مع قديم المدينة، وما يلبث أن يشعر بالتحدي الذي استدعته فنون العمارة من أرجاء العصر المترامية الأطراف.

توقف حواره الصامت مع دخول رجل قدَّر أنه صاحب المحطة أو مديرها، كان الاثنان معاً. قدم الرجل بكوفيته المذهبة

كأمير حقيقي، ويسبقه عطر فرنسي مع عينين كالصقر نظراته تتفحص الضيف وكأنه يتأكد من واقع مطابقته للصور المنتشرة لسلام المحارب في الصحف والتلفزيون. وكان دخوله كأمير ليصبح مع لقاء الأحضان أخوياً. وانهالت كلمات الترحيب بالضيف كخطاب لا يمله صاحبه. وإذا ما انتهت حفلة الترحيب احتل المدير موقعه على رأس الطاولة تحيط به مجموعة من أجهزة الهاتف بألوان مختلفة وقد بدا الواحد منها وكأنه يختص بمكالمة مع جهة معينة، وأما المحارب فقد بقي وحيداً مع المقاعد الفارغة إلاّ من جلدها.

وكان المضيف قد حسم مرحلة المجاملة بإعلانه أن مجلس إدارة المحطة الفضائية اختار الكاتب سلام المحارب من بين أفضل كتاب الدراما العرب لإعداد مسلسل تلفزيوني يرسم للمشاهد صورة درامية للحياة في مدينة قد تصبح رمزاً للمدن العربية. المتعة في المغامرات التي يعرضها المسلسل وكذلك الحوار يحتل بجاذبيته مكانة لها أهميتها، هكذا أكّد المدير على رغبة المحطة في تكرار الملاحظة لأكثر من مرة. وقال المدير إن المتعة هي ما يطلبه المشاهد، وتكون في أقصاها عندما يتوفر الحب سنداً لتلك المغامرات.

وقال المدير، كمعلم في مدرسة، ولا تنس لوحات من الطبيعة وكذلك الآثار من عمارات قديمة من أجل إضفاء جماليات متنوعة على المسلسل. وإذا ما ضرب الطاولة بكفه هتف بالقول:

"شركات الإعلان ستتهاتف على حجز أكبر المساحات في المسلسل المنتظر إنتاجه شريطة أن تتوفر له عناصر النجاح التي تحدثنا عن شيء منها".

وهبّ واقفاً يجول حول مقعده ليقول:

"لك الخيار في كتابة المسلسل، ولكن أليس ما قلته لك يعني توفر النجاح للمسلسل؟".

كان الاستسلام للإصغاء قبل أن يعلق بشيء من صفات المحارب، إلاّ أنه في ذلك اللقاء لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى المكوث في مقعده كتمثال يوحي بالطاعة، ولكن الرغبة في أن يقول شيئاً كانت تغلي بداخله. بات مستعداً لقول شيء ولكن الوقت لم يسمح له، فقد كان دخول السكرتيرة على القاعة، والتي كانت في منتصف العمر ولا يشي منظرها بأنها من أهل المدينة. وضعت أمام المدير أوراقاً قام بإلقاء نظرة سريعة عليها، ولكنه ما لبث أن مرّرها إلى المحارب وهو يقول:

"أمامك العقد في نسختين. اقرأه على مهل منك ريثما أعود".

وحيداً في القاعة من جديد، تصحبه في رحلة القراءة صفحات ثلاث أحكمت صياغة بنود الاتفاق بدقة، كما فعل الكومبيوتر في رسم كلماتها. كانت فقرات العقد ملزمة بتقديم ملخص تفصيلي للأحداث والشخوص مما يمهد بسهولة لكتابة السيناريو من قبل

المؤلف بعد الحصول على ملاحظات خبراء المحطة. وبالرغم من الأجر الكبير للحلقة الواحدة إلاّ أن سلام المحارب ابتدأ يحسّ أنَّ بنود العقد تقيد حريته دون أن تشير إلى ذلك. دقائق تأمل فيها أوراق العقد، وقد ساوره شعور بألاّ يوقّع، الاّ أنه خشي أن يتهم بالجبن أو (بالولدنة). المحطة تعامله على أنه كاتب كبير، وتدفع نفقات طائرته بالدرجة الأولى، وتحجز له جناحاً في أرقى الفنادق، ولكنه يمتنع عن توقيع العقد.

"أيمكن أن أرفض دعوة إلى الكتابة من جديد؟".

"قد تكون في هذا المسلسل نهاية لجفافي. وقد يكون آخر ما أكتبه. هل ابتدأ الرهان؟"

وأثنى المدير في عودته على توقيع المحارب على العقد. هتف مهنئاً لاتخاذ الكاتب قراره متمنياً له أن يستلم أوراق الملخص بالسرعة نفسها. قال منتشياً:

"إن كانت حلقات المسلسل اليومية ستغطي أشهراً، فهذا يعني أن الاستاذ سلام المحارب سيكون من أغنياء الكتّاب العرب".

آنذاك خرج المحارب عن استسلامه، وقال ممازحاً:

"وهل يعني ذلك أني سأصبح كاتباً بترولياً".

فما كان من المدير إلاّ أن فاح منه الغضب بدلاً من العطر، ولكنه تماسك وسرعان ما رسم ابتسامة على شفتيه وهو يقول بتقريرية المسؤولين الكبار:

"لا تغيب عنك روح الدعابة، أتراه أثر هذه المدينة عليك؟".

"هذا إطراء يا سيدي لم أسمع بمثله منذ زمن".

واكمل بقوله وهو يستعد للمغادرة:

"لم أعرف شيئاً من المدينة سوى أطراف ثوبها المرصعة بالحداثه المدهشة".

فلم يعلق المدير على الملاحظة، صامتاً كان. وهو يرافق ضيفه إلى الباب تمنى له إقامة مريحه. آنذاك شعر المحارب بتحرره من قيود اجتماع أصبح بداية للعودة إلى الوطن.

في الطريق إلى الفندق خيّل إليه أن هذه المدينة قد تكون مسرحاً للمسلسل التلفزيوني، ولكنه سرعان ما اتهم نفسه، فهو يجهلها ولا يعرف عنها شيئاً سوى ما كانت عليه من أبراج وطرقات. اكتفى آنذاك بمراقبة الطريق من نافذة السيارة الذي بدا بلا نهاية. واقتنع بمراقبة أشجار النخيل المتشابهة.

وهذا ما سيكون عليه الحال بعد فترة من الوقت فالفندق فتح ذراعيه له ليلجأ إليه كملاذ. وفي جناحه رمى نفسه على مقعد وثير كغريق عثر على لوح من خشب:

"انتهت المهمة. بدأت المهمة".

وقضى بقية يومه في الجناح يقرأ عن الصين في قصة الحضارة لول ديورانت، وقد اصطحب ذلك المجلد معه بعد ان

مرت عليه سنوات على قراءته، فهل كانت مصادفة أنْ يعيد لنفسه شيئاً من حضارة الصين القديمة في مدينة دبي الحديثة؟.

وفي الفجر غادر سريره استعداداً للسفر يعود إلى حيث ينتمي. وهو ينتقل إلى المطار تحولت عنده دبي إلى مجهول ولكنه مدهش، فهو لن يذكر منها سوى المراكز المغلقة على رفاهية الحداثة المستوردة. وهو لا يذكر أي بذخ رافقه في حياته الحلبية، فلم تكن مدينة دبي سوى سحابة مرت في سماء رحلته في الحياة، وستختفي لحظة استعادة حلب.

وطئت أقدامه أرض مطار دمشق، ومن بعدها سحبته دواليب السيارة باتجاه مدينته. كانت سرعة الزمن تغزل صوراً في مخيلة سلام المحارب الوحيد مع السائق الذي اتسم بصمته. وجعلت الصور تتجمع في أفكار تحاول أن تنسج قماش المسلسل المطلوب إنجازه.

ها هي حكاية الفلاح الذي أمضى عمره في زراعة أرضه الصغيرة ورعاية حيواناته القليلة، واحتضن بالحنان أفراد أسرته الذين يتزايدون مع مرور الأيام. وها هو يواجه فترة الجفاف الذي يأبى وقف زحفه للسنة السابعة. المطر عزيز طوال تلك الفصول المتلاحقة، وأما المياه الجوفية فقد وصلت إلى ما يقارب النهاية. وهكذا لم تنفع صلاة الاستسقاء الجماعية في استرضاء السماء كي تروي العطش.لم يستطع مقاومة فكرة النزوح عن

أرضه التي دُفن فيها أجداده، لما أخرج ترابها الخير للناس. كان لا بد له من الهجرة إلى المدينة. واكتشف أن العالم واسع فيها، وابتلعه من البداية حزام الفقر القائم على أطراف المدينة ليشارك البؤس مع أسرته التي لم تعرف الطمأنينة في الأشهر الصعبة الأولى. وفي سعيه إلى الرزق عاملاً في أي مجال أتيح له من العتالة إلى الحراسة لبناء يشاد إلى جمع القمامة، فتبين له أنّ ما يقابله من قوة يفوق ما ناله من جفاف قريته. وهكذا يعود إلى أرضه معدّاً نفسه لمواجهة المصاعب التي قبل بها، ورافضاً لظلم المدينة.

وتساءل سلام المحارب إن كانت حكاية الفلاح تنفع لبناء مسلسل، فكان خياله قد انتقل إلى فكرة أخرى، كانت حكاية المغترب قد بدأت بالتكون مع طي المسافة الممتدة أمام باصريه. إذن فقد عاد المغترب إلى وطنه بعد عشرات السنين من الهجرة في بلد إفريقي. بنى ثروة رافقت أحلاماً تمنى ان يضعها ذات يوم في مشاريع تخدم بلده وأبناء المجتمع فيه. أشعلت الحماسة أفكاره وتفجرت همته في إعداد مخطط لمصنع ألمونيوم وآخر للأثاث المنزلي. وكان يهدف إلى إعطاء الطبقة المتوسطة والفقراء فرصة أفضل في تكوين حياتهم العائلية وتحسينها. وفي لحظات التخطيط ابتدأت المعاناة، فمن بيروقراطية الإدارات الرسمية، والمعاملات التي تضيع في دهاليز حكومية، وأساليب

يتقنها موظفون في استنزاف قدرات المغترب. الرجل يحارب خصوماً مجهولين، وما أن يسدّ ثغرة حتى تفتح له هوة. سنة لحقت بها أخرى فكان هناك شيء أطلق عليه اسم الوباء. وهكذا أصيب باليأس ليعود من جديد إلى أرض الاغتراب.

وتساءل إن كانت المسلسلات السابقة قد ألقت الضوء على مواضيع مشابهة في فساد الإدارات وخيبة آمال العائدين من الاغتراب بعد تكوين ثروات. وجعل يفكر في حكاية عن زعيم مليشيا قد يكون له نموذج في التاريخ الحديث أو القديم، فعثر عليه. كان الزعيم قد ارتكب الجرائم في حرب أهليه فقتل انتقاماً ومن ثم تلذذا بلا رحمة، يسفك الدماء ويكسر العظام ولا يرتوي. وحش بداخله والظلم متعته. وفجأة وقع في فخ أفعاله فكانت له محاكمة عادلة ليقضي سنوات في السجن الذي استبدل إعدامه لظروف خاصة. وحدث في ظروف سياسية أن أفرج عن الزعيم فبات طليقاً، واختفى أياماً في دارته. شيئاً فشيئاً تجمعت حوله فلول جماعته ليصبح له حزب سياسي. شق الطريق إلى احتلال مكانة بارزة بين الأحزاب، وهو ذا يحاول أن يجد له قوة في ترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية.

وصل إلى مدينته، وها هو الآن في بيته، فتوقفت الأحلام التي ولدت أفكاراً لمسلسلات. توجه إلى مطبخ أعماله الأدبية، الورشة التي صنعت أعماله، وقد تخلى عن أفكاره وحكاياته التي دارت

في طريق السفر ليجد أنها افتقدت إلى روح المسلسل أو أنها قد تصبح مكرورة. بعد فترة انتقل إلى أوراقه يرسم عليها إشارات استفهام وتعجب، ويضع عليها الدوائر والمستطيلات، النجوم والأقمار، الوجوه التي تميل إلى حيوانات خرافية. وابتدأت تلك الهلوسة تتراكم كحبات الندى نقطة بعد أخرى، فلم يكتب له التوفيق في الانطلاق إلى كتابه جملة واحدة. كان الليل قد مال عن منتصفه وهو يريد أن ينام.

(٦)

وسمع في ظلمه عتبات الفجر نداء سعاد يدعوه إلى اليقظة تمهيداً لاستيقاظه. الزمن يسبقك. هكذا كانت الدعوة، وهمست قم فأنت تكتب، وارتفعت وتيرة الصوت في سمعه:

"اكتب سيرة مدينة".

فاستوى في فراشه يتساءل عن تلك السيرة، وأية مدينة. وسمع سعاد تقول بحزم:

"سيرة مدينة أنت تعرفها، هي ما تبحث عنه".

لبث المحارب فترة، إلاّ أنه هبّ من فراشه مسرعاً إلى الصالة حيث صورة سعاد فوقف أمامها. وبالرغم من العتمة فإنّ النور كان يشع من وجه المرأة الجميلة:

"ألا يمكن للسنين أن تغيرها".

قال لنفسه وهو يحدق في الصورة يحاول أن يسمع منها، فكان الصمت مغلقاً. كانت سعاد في الأربعين آنذاك، ولكن الأيام لم تصبها بشيء. هتفت سعاد فجأة ليكون صوتها أجمل ما يدخل دهاليز أذنيه:

"اكتب سيرة مدينة".

هي تطلب منك الكتابة عن سيرة مدينة، أو ربما عن مدينة بعينها لتكون مسلسلاً. وتساءل:

"المدينة تاريخ، والتاريخ فيه حكايات وأحداث وبشر. أية مدينة اكتب عنها؟".

ومع خيوط الصباح تقدم من غرفة صناعة الكتابة وهو يقول لنفسه:

"حسناً فلتكن سيرة مدينة".

وإذ بسط أوراقه أمام قلمه، هتف بصوت مسموع:

"ولكن أية مدينة، وأية سيرة؟".

وتساءل المحارب وقد بات مقتنعاً:

"أهو تاريخ بلد أم سيرة مجتمع؟".

وقال إن التاريخ هو المجتمع، ولا فرق بين أحدهما.

وحدث نفسه مستعرضاً واقع المحطة الفضائية:

"أعلم أنها أصلاً لا ترغب في موقف سياسي، بل أنها لا ترغب في السياسة، فلكل بلد عربي شؤونه وهي تنفر من أمور لها علاقة بالسياسة. سيرة أية مدينة تمر في حقل ألغام".

وانفجر المحارب ضاحكاً فالسيرة يجب أن تغسل بالصابون والمطهرات، فلا يمكن أن تمس طهارة المحطة فما الذي تدل عليه سيرة المدينة؟.

عليك يا سلام المحارب تجنب الخطوط الحمراء التي أصبحت حدوداً تفصل بين الناس والحكام وقد ترسم تلك الخطوط بين العجائز والشباب، وإنَّ تصلب شرايين الناس بتقدمهم في السن لا يسمح لهم بالانفتاح على الأفكار. خطوط حمراء رسمت على الخرائط لتعيد تشكيل الحدود وفق الأنظمة والبشر. الأقمار الصناعية توظف اليوم في بث برامج المحطات على مبدأ حيادها بين الظلم والتعسف، الفقر والرخاء، الحب والجنس، وكذلك العدل وإعدام الشعوب. محطات تمطر المتعة والتسلية. هتف المحارب:

"ألا تستحق المدن المسكينة أن يكتب لها تاريخ حقيقي؟".

توقف المحارب. سدت عليه منافذ التفكير. ومن جديد أكل عليه الهسيس بل هو الوسواس بين العجز والإقدام. وعاد إلى

نداء سعاد الذي سكن روحه، هتف متيقظاً هي "حلب"، وقال مخاطباً الأوراق التي ملت بياضها:

"يكون المسلسل عن السيرة الحلبية!".

ووجد في إطلالة الضوء القوية من النافذة فرصة اغتنمها، فتحرك القلم على السطح الأملس. وكانت الكلمات الأولى في الاسم الذي اختار نفسه دون تدخل:

"عبد القادر الحلبي".

وانسال قلمه فكان تاريخ عائلة. عبد القادر الحلبي مازال يحتفظ بمكانته على رأس عائلة يدين له أولاده وأحفاده بالولاء احتراماً لمهابته وقوته في إدارة النظام المحكم الذي وضعه. حياة عبد القادر الحلبي هي القيادة وقد انعكست على أفراد عائلته، ولكن بعضهم أراد أن يتخلص منها. وبالرغم من أن عبد القادر الحلبي في ماضيه المشرف بانتسابه إلى الجهاد ضد الاستعمار الفرنسي، فإن ذلك ما زال يسري في معظم عروق الأبناء والأحفاد. كان بيته الكبير محجاً يتردد عليه الأبناء والأحفاد، وكذلك رفاق الحي، ويقصده رجال سياسة وأحزاب. عبد القادر الحلبي واحد من آخر الباقين من رجال رفضوا ذلّ الاحتلال وقد منحوا البندقية شرف الحرية وتوّجوا بقتالهم استقلال البلاد.

وابتدأت زوجات الحلبي في طرق باب سلام المحارب ليفتح لها الطريق، فكانت الواحدة منهن تقدم نفسها بعد الأخرى. سجّل أسماؤهن ووقائع ارتباطهن بالزوج وما خلّفن من أبناء ساهموا في اتساع العائلة الكبيرة.

وهكذا كانت البداية، فإذا ما أصبحت الرحلة مستمرة فإن حكاية المسلسل باتت متابعتها في ساعات الليل والنهار. عاد سلام المحارب من جديد.



عبد القادر الحلبي
أو حكاية السيرة

-١-

في حوش الدار الصغيرة، كانت الأم تنادي للمرة الثانية على ابنها الشاب عبد القادر لإيقاظه:

"الشاي بانتظارك يا ولدي. الإفطار يا عبد القادر".

وتعود إلى التنور من جديد لإخراج الرغيف قبل أن يحترق ووضع آخر. وكررت النداء بصوت أعلى. وهي في طريقها إلى (النملية) لإخراج صحني الزيت والزعتر، مازالت تنادي. وفي ركن الحوش كان الماء يغلي مع أوراق الشاي فتحول صوت الأم إلى استغاثة:

"الإفطار يا عبد. يا حبيبي النائم. هل ستتأخر في نومك يوم زواجك" .

وارتفع صوتها حتى كاد الجيران يسمعونه:

"عليك بالزواج يا عبد القادر، فمن يضمن لك بقائي معك"

ووقفت عند باب غرفة ابنها وكأنها تخاطبه:

"من غير الزوجة ستجد نفسك وحيداً. أهل الحارة لا يرحمون شاباً تخطّى الخامسة والعشرين بلا زوجة"

وبينما تعود إلى التنور لتضع فيه رغيفاً آخر، سمعته يتحدث بكلمات لم تفهمها. وكان عبد القادر قد خرج إلى الحوش يتمطى وهو يقول:

"ما أحلى خبز التنور في الإفطار يا أحلى أم عبده"

كان يقترب منها بهدوء ليلتحم بظهرها ويقبلها من العنق، فجعلت تقول بصوت خفيض"

"يا ابن الماكرة فوالله أشكّ في أني ولدتك"

مساء عاد عبد القادر من (الخان) الذي يعمل فيه. كان مع العمال يدخلون أكياس الشعير والعدس وغيرها من المنتجات الزراعية، فيكدسونها استعداداً لبيعها. وهو يعمل مع زملائه في كنس الحوش لتجمع بقايا تلك الأكياس. وفي ذهابه إلى الدار دخل مقهى الحي ليسلم على الرفاق فكان يحمل حكايات عن شكاوى الناس لغياب القمح، فالفرنسيون يحتكرونه لصالح جنود الحلفاء المنتشرين في أرجاء الحرب العالمية الثانية. ويرد عليه واحد من شباب المقهى بأن (الكاز) المقنن لا يكفي لأسرة واحدة لاشتعال

النار في وابور (البريموس)، و يتساءل آخر إن كان الدواء متوفراً حقاً. يقولون إن الناس يلجؤون إلى الحطب والسحاحير كوقود لهم، وإن الشيوخ يكتبون الأحجبة بدلاً من الأدوية. وفي حلقة المقهى يتبادل الرفاق أخبار القتال ضد الفرنسيين، فمن (جبل العرب) إلى (جبل الزاوية) إلى مناطق جبال الساحل العالية، لم تنقطع المقاومة للاحتلال. وأما المظاهرات فلم تهدأ في كثير من المدن السورية فلا تتوقف اعتقالات الطلاب والسياسيين.

يعود إلى الدار فتستقبله أمه مرحبة لتستكمل في عودته وهي تنقّ بالشكوى المرسومة يومياً بمقدار العزوبية التي ألحقت ابنها باللعنة، وقد أصابته منذ سنين. تحدثه عن صبية من أهل الحارة، أو عن أخرى من عذارى الأحياء المجاورة أو البعيدة، فكان يستمع إليها ويبتسم:

"أنت أمي ولا أتصور بديلاً منك في الدار".

فتنفجر في وجهه لتقول:

"حرام عليك يا ولدي أن تحرم بنات الناس من رجولتك وجمالك".

ولا تنقطع الأم عن الدعاء لعبد القادر والدعوة له أن يهديه الله في الموافقة على الزواج. هي تحضر الشيخ الضرير إلى الدار مرّة أو مرتين في الشهر الواحد. تطعمه وتسقيه الشاي، فإذا شبع

قرأ لها الأوراد والتعازيم المبهمة من أجل أن يهتدي الابن المتمرد، إلاّ أن الأم تصحح له في كل دعاء بالقول بأن يهتدي الابن العنيد. وإذا طرح على الشيخ ابنة أسرة بارك أهلها فقال نعم الاختيار. وقليلاً كان عبد القادر يقابل الشيخ الضرير فيسلم، ولكنه يكرر ماشياً "هي إرادة الله يا شيخنا الفاضل"، ويهمس في أذن أمه أنه باق لها فالدار لا يجوز أن تستضيف امرأة أخرى. إلاّ أن الأم لم تيأس ولن تغفل. هي لا تتوقف صباح مساء عن الدعاء لابنها والدعوة كي تكون له زوجة.

كان الخان واحداً من مراكز المدينة التي يتم فيها تداول الأحداث بسرية. اضطرابات وأخبار الثورات في مناطق من سورية. وكان صاحب الخان يتابع متكتماً أخبار إذاعة الشرق الأدنى لينتقل منها إلى (يونس البحري) من إذاعة ألمانيا، فيتسرب شيء منها إلى زوار الخان. وكان عبد القادر في زياراته للمقهى من حين لآخر، يكتفي بمشاركة الرفاق ألغاز وقائع ما رشح من أخبار الثورات في الجبال والمدن، ليكون مقتل جندي فرنسي يعني اصطياد طائر، والجراح التي أصابته بالحكة التي يتسبب بها الجرب، وإذا ما اعتقل ثائر أو متظاهر فيرمز إليه بإغماضة العين اليمنى لمرتين.

ويولد الغضب في أعماق عبد القادر الحلبي. جنيناً تخلق ومازال ينمو يوماً فيوماً. فحولته تأبى أن يقف متفرجاً. أريد ان

أحصل على سلاح، إلاّ أن السلاح بحاجة إلى مال، وكان الفقر شعار الشاب. المهربون عندهم الخبر اليقين فكانوا يؤمنون ما يطلبه أحد من الطبنجات والبنادق، إلاّ أن عبد القادر لا يملك ما هو مطلوب. وابتدأت خطة التوفير، الليرة إلى جانب ليرة، والكيس السري يجتمع فيه كنزه. وكان خلال شهور طويلة يقترب من الهدف، فإذا ما ظن أنه قد اكتمل أحسّ بنشوة تسري في أوصاله، فمضى يربط الكيس بشرواله إلى مخبأ المهربين.

عرف أنّ (التلة السودة) هي مقصده. بيوت هشّة غطت التلة وأخرى في كهوف، فاستدل على الكهف من انتشار رجال حول مدخله. سئل عن الهدف من الزيارة، فإذا أجاب لغرض السلاح، سمح له بالدخول. وتقدم عبد القادر في الممرات المتعرجة وهو يشعر بمراقبة له. ألقى السلام على ثلاثة من رجال يفترشون الأرض، ويتكئ زعيمهم على نتوء صخري. قال ثالثهم المتجهم:

"أنت قبضاي في حارتك، أم أنك تريد أن تقاتل الفرنسيس".

فتلعثم عبد القادر، لكنه تماسك وهو يطلب (البرابلو)، مخترعاً قضية ثأر. وقال للزعيم الذي ملأ شارباه نصف وجهه وهو يدخن في النارجيلة السامقة بطولها:

" مسدس. أريد مسدساً مع الطلقات".

ومدّ الزعيم ذراعه يطلب النقد، آنذاك أخرج كيسه من شرواله، فقدّمه له. أشار الزعيم إلى جاره ليحمل الكيس فهزه ثم

أخرج النقود فإذا هي أوراق ليرات سورية وعدد كبير من الفرنكات. جعل يعدها.

"يا مسكين أنت تجمع الصدقات أمام باب الجامع"

هكذا قال فضحك الآخرون، وظلّ عبد القادر لا يعلّق بكلمة أو تجهم. قال المهرب:

"مبروك عليك فرد البرابلو، وتستحق صندوقاً واحداً من الخراطيش"

ونبش في كيس من الخيش بحثاً إلى أن وجد شيئاً فأخرجه فإذا هو مسدس كبير، وقال:

"يا عيب الشوم، صدقات أمام باب الجامع!"

فلم يعلّق عبد القادر على السخرية، وتناول مسدسه ليعاينه، وسأل إن كان من الممكن أن يحصل على صندوقين فكان أن صاح الثلاثة بصوت واحد:

"الصدقات يا عمي لا تسمح لك بأكثر من صندوق"

خرج من التلة السوداء متفادياً إنزلاقات الممرات فيها، فكان في دخوله إليها لم يحسب لخطورتها حساباً. وإذ وصل إلى بداية الشارع أدرك أنه قد أنقذ. ولفّ عبد القادر كنزه الثمين بشاشية رأسه التي لم يسبق له أن نزعها من قبل. عاري الرأس يمشي، فكان يستقبل بالفخر نظرات المارة إليه، وظلّ عالي الجبين تومض عيناه بالقوة. بدا عبد القادر وكأنه رجل شديد البأس.

قفل عائداً إلى الدار ليكتشف غياب أمه عنها، فهي إما عند ابنتها أو تشرب القهوة عند واحدة من الجارات. سارع إلى وضع مسدسه وصندوق الخرطوش في مشمّع، وابتدأ في نبش التراب واضعاً اللفة عميقا بالقرب من شجرة النارنج. وإذا ما سوى التراب طبطب على سطحه قائلاً:

"نام يا حبيبي نام. ولا تستيقظ قبل أن آمرك"

ومن جديد عاد مسرعاً إلى الخان.

مساء يدخل الدار. يلقي نظرة على مخبأ الكنز، فإذا وجد أمه أمامه قبّل يدها، وتلفُّه بفرح وهي تعلن عن العروس التي وفقنا الله بها. وبينما يصغي باحترام إلى ما تقوله أمه عن صبية (لقطة)، صغيرة وممتلئة وأحلى بنات بائع (المشبك) الذي يعرف عنه أنه لا يتوقف عن استقبال زبائن الحلوى الساخنة صيفاً وشتاء، ولربما أخذت الصبية حلاوتها من أقراص (المشبك). وقال عبد القادر:

"صبراً جميلاً يا أمي فالله هو الذي يختار".

في الليل وبعد العشاء طرق باب الدار، واستمر قرعه بعنف، وكان يتداخل مع الضربات صوت مغربي:

"افتحوا الباب قبل أن يحطمه الجنود".

جمدت الأم هلعاً، في اللحظة التي تقدم عبد القادر هادئا من الباب. فتحه. وتدفق جنود معظمهم من السنغال يقودهم ضابط

أشقر فانتشروا في أرجاء الحوش. كان مشهد الاحتلال يتكرر شهرياً لأكثر من مرة، واعتاد عبد القادر اقتحام الدار للتفتيش. لم يظهر عليه أي خوف وبخاصة أن كنزه مدفون في التراب بالقرب من شجرة النارنج.

الجنود يقلبون الفرش واللحف والطناجر. يبحثون في التنور، ويطلّون على البئر من باب الاحتياط فهم لم يكتشفوا من قبل أي مخبأ له. انتهى التفتيش فقام الضابط بتقديم الاحترام بانحناءة رأسه، بينما قال المغربي بالإعلان عن الاعتذار. قال عبد القادر لنفسه مع خروج الجميع من الدار:

"لن ينجح أحد في نبش التراب".

بعد أيام قليلة أخبر أمه بأن مهمة كلَّفه بها صاحب الخان، وسيسافر إلى (الجزيرة) مخترعاً كذبة غلال سيشحنها، لزمت الأم الصمت ولكنها بعد قليل دعت له بالتوفيق. قبّل عبد القادر يدها طالباً الدعاء له بالتوفيق في مهمته.

-٢-

مع خيوط الفجر الأولى خرج من الدار، حاملاً كنزه وقد ربطه إلى ظهره ملفوفاً بقماش تغطيه أوراق من شجرة النارنج. وألقى على كتفيه عباءة فروة الغنم ومضى في طريقه. كانت

الحياة في حلب قد بدأت تدب ببطء. المصلون يغادرون المساجد، بينما أهل السوق يتوجهون إلى دكاكينهم وخاناتهم، وينتشر زبالون في الشوارع يكنسون الأرض. وإذا مرّ عبد القادر بعدد من المخافر لا يعيرها اهتماماً فيقطع خطواته من أمامها بثقة. وكان هدفه الوصول إلى (باب الفرج) الذي ضم عدداً من الكاراجات ليصبح مركز السفر إلى المدن والأرياف. وكان أبرز الأبنية هو (المكتبة الوطنية) التي شيدتها بلدية حلب فوضعت المخابرات الفرنسية اليد عليها، فإذا ما مرّ بها عبد القادر أحسّ بشيء من الخوف الذي لم يكن من المسدس الذي يحمله بل الذكريات المتراكمة بثقلها على أهل حلب.

وقد انتصب عمود الساعة أمام الكاراج الذي قصده عبد القادر للسفر إلى (أريحا)، فدخله ليشاهد عدداً من الباصات في المكان الأشبه بالهنكار الواسع الذي امتلأ بمئات المسافرين إلى اتجاهات مختلفة.

لم يسبق لعبد القادر ان خرج من حلب فأحسّ بالغربة، لكنه عزم على المضي في مهمته.

بعد ساعة من الانتظار امتلأ الباص. مضى في طريقة خارجاً من المدينة ليتوجه في سيره إلى (أريحا). وكان عبد القادر يعلم أن البلدة قد تحولت منذ القديم إلى مصيف لأهل حلب، وأن التلال قد انتشرت حولها ومنها جبل (الزاوية) الذي تحول إلى

معقل للثوار يحاربون فيه الفرنسيين بالتطلع إلى أن تعم الثورة أرجاء من البلاد.

لبث عبد القادر ساكناً في مقعده وهو يلاحق الطريق الذي اضاءه نور الشمس الصباحي، فكانت حقول القمح والشعير ممتدة إلى الأفق، وأشجار متفرقة قد تناثرت على الأطراف. تحرش به جاره في المقعد فلم يلتفت إليه متطلعاً من النافذة، إلاّ أنه مع إلحاح الجار أجاب عن سؤاله بأنه يقصد أريحا من أجل استيراد الكرز، كاشفاً من زيارته الأولى وهو يتساءل عن أهم البساتين التي يمكن أن يتعامل معها، وإذا بالجار يكشف عن خبرة واسعة، وتطوع بالحديث عن طبيعة المنطقة، وهكذا انطلق الرجل بوصف جمال أريحا، بساتينها وجبالها والآثار التي تعود إلى تاريخ قديم. وعاد إلى الكرز الأسود الذي خص به الله بساتينهم فلا تعرف منطقة أخرى من سورية مثيلاً له، إلاّ أنه لم يأت على ذكر ما يجرى من مقاومة للفرنسيين في جبل الزاوية. وتساءل الجار فجأة إن كان المسافر واحداً من تجار (باب جنين)، فإذا بالرد يأتيه دون تلكؤ:

"شريكي في المال ضابط كبير في الدرك، وسيقوم باللحاق بي بعد الظهر".

ظهر الإعجاب على الجار وهو يهز برأسه، بينما يقول عبد القادر:

"أهل حلب مغرمون بالكرز الأسود. المربى، العصير، واللحمة بالكرز هي الأفضل".

ويعلق الجار بالقول إننا في أريحا مثلكم يا أهل حلب، فعلّق عبد القادر بقوله:

"الكرز هو الفاكهة التي اختارها الله لتكون اللؤلؤة السوداء".

وبدا ان الجار قد عجز عن فهم وصف الكرز، بينما كان القادم من حلب لا يعلم شيئاً عن اللؤلؤ. وابتدأ الباص وصوله من مقصد السفر.

في ساحة البلدة لفظه الباص، حائراً كان ولا يطيق عباءة الفرو ولكنه لا يستطيع التخلص منها. وكان ملتزماً في حركته بتعاليم الأستاذ. كان معلم المدرسة في حيّهم الذي استدل عليه، هو من أنصار إبراهيم هنانو. اقترب منه في خروجهم من صلاة الجمعة ليحادثه على انفراد، وكان الأستاذ قد عرفه شاباً من خيرة ابناء الحي، وهكذا قبل فكرة الالتحاق بثورة جبل الزاوية ليدفعه إليها. وكانت الرحلة.

كان المقهى يقع على أطراف الساحة. الكراسي والطاولات وقد توزع على معظمها أهل البلدة أو الغرباء، فجلس عبد القادر بعيداً عنهم بانتظار من كان قد وعد به. لمح صبي القهوة الذي تقدم منه، آنذاك طلب كأس شاي، فجاء الكأس على عجل فيما يهتف الصبي:

"أكرك عجم مع أربعة معالق سكر بلون التراب".

وأدرك عبد القادر أن كلمة السر بحاجة إلى مفتاحها، فقال:

"السكر لا بد أن يكون هو الأحمر".

فمال عليه صبي المقهى وهو يهمس في أذنه:

"على رأسي أبو حلب".

وانفلت عائداً إلى الداخل.

بعد قليل سمع صوتاً جاء من رجل اتخذ له مقعداً إلى الطاولة المجاورة، وكأنه يحادث نفسه:

"الحق بي بعد قليل، وكن بعيداً عني".

فلبث عبد القادر جالساً على كرسيه تاركاً فرصة للرجل في الابتعاد، فإذا ما أصبح في آخر الساحة، هب واقفاً ليحاسب صبي المقهى، ومضى متابعاً خطوات الرجل عن بعد، فكان الدليل إذا تباطأ تراخى هو في مشيته. في حارة ضيقة من بلدة أريحا توقف ليحكم حزام قنبازه فتوقف عبد القادر ليحك رأسه منشغلاً بقراءة الكتابة على جدار، وعاد الرجل يمشي وهو يقرقع بحذائه على بلاط الحارة بينما عبد القادر كان يخشى أن يحدث أية ضجة. وانتهى الدليل عند باب قديم ليقرعه بالسقاطة ثلاث مرات، ليفتح. آنذاك أشار إلى عبد القادر أن يقترب، ومن ثم دخلا الدار. أصبح الاثنان داخل الحوش فهمس الدليل في أذن

صاحب الدار، وما لبث أن غادر من حيث أتى، ويبدو أن مهمته قد انتهت.

حيّاه الرجل الخمسيني وقال أن اتبعني، فلحق به عبد القادر. دخلا غرفة ومنها إلى أخرى، فإذا برجال ثلاثة قد توزعوا على بساط جالسين وهم يستندون إلى وسائد. هتف صاحب الدار:

"أبو حلب، الأخ عبد القادر".

ووقف الرجال وهم يرفعون أذرعتهم في الهواء، وكانوا يرددون بصوت واحد:

"أهلاً بعبد القادر أبو حلب".

صافحه أحدهم وهو يدعوه إلى البساط، فاستجاب. خلع عبد القادر عنه عباءة الفرو ليجلس أرضاً، وها هو يأنس إلى الرجال فكان شعور يراوده أنه يعرفهم منذ زمن. كانت أريكة في صدر الغرفة فتراجع للاستناد إليها، وهو يلمح في أسفلها أنابيب حديدية، فعرف أنها البنادق، وأدرك أن الغرفة كانت للثوار. وتربع على البساط رجل الدار ليصبحوا خمسة وكأنها ندوة افترش رجالها الارض.

وتساءل من يظن أنه صاحب المكان أو أنه مكلف براحة المجاهدين، وكان قوله دون مقدمات:

"كنا قد أُخبرنا بقدوم ابو حلب إلينا، نحن نرحب بك يا أخ، ولكن لم تريد أن تقاتل معنا؟".

آنذاك كشف عبد القادر عن ظهره، وقام بفك رباط وسطه. أخرج المسدس مع صندوق الخرتوش ووضع كنزه أمامه، وقال بهدوءه المعتاد:

"أتريدون أن يكون لكم شرف النضال ضد الفرنسيين؟".

وقال مجاهد من الرجال بحماسة:

"لا والله. نحن نريد الجميع في البلاد معنا".

وعلّق واحد منهم:

"ومن أخبرك أن الثوار يحسبون على أهل المنطقة؟.

وقال آخر وقد استوى في جلسته:

"إنهم كل أهلنا في البلاد، المدن والسهول والجبال".

وهتف بأن أبو حلب مرحب به، وأهلا بك.

كان رجل الدار يقترب من المسدس يعاينه، ينقله من يد لأخرى، وتساءل:

"أو تريد أن تحارب جنود الاستعمار به؟".

فقال عبد القادر إنه جمع الليرة فوق الفرنك ليحصل على المسدس من مهربي السلاح، فانبرى أحدهم متسائلا عن أهمية هذا المسدس في وجه رشاشات العدو ومدافعه، وعلّق بالقول:

"لا ينفعنا مسدسك يا أخ، إلا أننا نرحب بك".

بداية خاب أمل عبد القادر في الحصول على المسدس، إلا أنه ما لبث ان استعاد الأمل بعد سماعه بترحيب الرجل به وليبلغ

أقصى ما يمكن ان يصل من نشوة. وقام ليمدّ يده بالمصافحة رجلاً بعد آخر، إلاّ أن الجميع هبّ واقفا ليعانق القادم من حلب، فكان احتضان الآخرين له قد دفع الدموع إلى عينيه لترقرق مآقيه. وفيما يحتضن رجل الدار ضيفه، قال:

"سيقوم واحد من رجالنا على طريقة استعمالك البندقية، وأرجو أن تحتفظ بمسدسك فهو ينفع".

وأضاف قائلا بأمر حاسم:

"ستبدأ منذ اليوم، وبعد قليل، التدريب عند السفح القريب من الآثار هو المأمون".

ويبدو أن الوقت قد أذن بانفضاض الجميع، فتقدم رجل الدار الذي كشف عن أهميته، ليلحق عبد القادر به. خرجا من أرض الحوش لينزلا في قبو. نادى على أحد الرجال المسمى بأبو محمد:

"أبوحلب أمانة بين يديك".

فهبّ الرجل امتثالا للأمر.

-٣-

تقدم البغل في صعوده عبر شعاب التلال حاملاً الرصاص والبنادق المخفية بخبرة. وكان الاثنان يتابعان الحيوان بخطواتهما الواثقة، بينما أرسل عبد القادر بصره متأملاً السفوح التي أطلت

الأعشاب من بين صخورها، ويمتلئ صدره بالفخر على إقدامه بالانتساب إلى الثوار في ساحة الشرف. جعل يقرن جمال الطبيعة بأهمية الجنة التي قد تكتب له باستشهاده. حياة الجبال لا يعادلها العيش في الحواري والأزقة، فيا لحظ أهل الجهاد.

كان بغل أبو محمد يسبق الرجلين بخطوات، فما تعيق الصخور مسيرته وقد اعتاد على معرفة طريقه، وكأنه يعرف الهدف. والتزم عبد القادر أوامر معلمه الذي يقوده إلى مكان التدريب. وظهر على الرجلين ملامح بائعين يجولان بالبضاعة بين البيوت التي تناثرت قلة منها على السفوح، بينما لم يظهر أي من مراكز قوى الفرنسيين. الطريق كانت آمنة يعرفها أبو محمد معلم الرمي، والذي افتتح لعبد القادر أول أيام التحاقه بثورة جبل الزاوية.

وانطلق صوت أبو محمد بالاهزوجة التي كان عبد القادر قد سمعها في حلب، وتغنّى بها في سره:

طيارة طارت في الجو / فيها عسكر فيها ضو / فيها ابراهيم هنانو / مركّب ابنو قدامو.

ومن يوم لآخر. كان واثقاً من انتشار اسطورة البطل ابراهيم هنانو في كل أرجاء البلاد.

توقف البغل عند منعطف أطلّ على منخفض بين ارتفاعين. كان الرجلان يتأملان الفسحة الخفية، وسمع أبو محمد يشير إليها قائلاً:

"هذه المنطقة من الأرض لا يعرف أحد عنها عدا جماعتنا".

وأخرجت البنادق وصناديق الرصاص، وقد حملها الاثنان منحدرين إلى تلك الفسحة، بينما البغل ربط إلى الشجرة الوحيدة على رأس التل، وقال أبو محمد بلهجة آمرة:

"ليس أمامك لاتقان التصويب على الاهداف سوى ساعات تنتهي مع غياب الشمس".

جعل عبد القادر يستنفر طاقته، وهو يحاول أن يكون لائقاً في الامتحان الذي ستكون نتائجه تحقيقاً لرضى ثقة الثوار، بل إن المعلم سيعلن عن نجاح التلميذ في امتحانه. هو لا يريد إلاّ أن يجتاز هذا الامتحان ليكون جديراً بالقتال ضد العدو.

التحمت البندقية بالكتف، وبعد محاولات تثبيتها بات لوح الكتف ملتصقاً بالقاعدة الخشبية، فكان لعبد القادر الدرس الأول الذي انتقل إلى الثاني في دقة النظر لمعرفة الهدف. وكان أبو محمد قد رسم بالطباشير دوائر متباعدة على سطح الصخرة الواضحة أمامه والتي كانت على بعد منه. وطاشت الرصاصة الأولى، فقال أبو محمد محذراً:

"انتبه يا أخ ابو حلب، فالرصاص عزيز".

ومن جديد جاءت الرصاصة بعيداً عن واحدة من الدوائر، فهتف المعلم:

"على الرصاصة أن تقتل جندياً فرنسياً".

واقتربت أخرى من محيط الدائرة، فصاح ابو محمد:

"لو أتقنت تصويبك لما خرجت عن الهدف".

بعد ساعة من الزمن جاءت الرصاصة في قلب دائرة، آنذاك خرج عبد القادر عن وقاره ليقفز في الهواء من فرح، فإذا بالمعلم يهتف:

"تمهل ابو حلب، فأمامك مشوار لبلوغ الهدف. عليك أن تصيب قلب الدوائر جميعاً".

ومن جديد صوّب على مركز دائرة فجاءت قريبة من محيطها. وتكرر اطلاق الرصاص بثبات يخفي غليان نيران التحدي. واذا ما أصاب الدوائر في مقتل، قال ابو محمد:

"هنيئاً لك ابو حلب، فالبداية جيدة".

وقام المعلم فجأة برمي حجر في الهواء، فإذا بالرامي ينجح في تفتيته، ليقول أبو محمد:

"ابو حلب، أنت رجل حقيقي".

وسمعت همهمة من الأعلى، فتنبه الرجلان في الساحة ليشاهدا شاباً يشير بعصاه. وقد دلت ملابسه على أنه من الرعاة. وأحسّ عبد القادر بالخطر، إلاّ أن المعلم الذي تبادل الإشارات مع الشاب، فكانت له الطمأنينة. تساءل عبد القادر عن أمر الشاب

فقيل له إنه واحد من رجالنا، وهو مكلف بحراسة المكان ويقول لنا إن كل شيء آمن. آنذاك هدأ عبد القادر وهو يدرك أن جماعة الثوار تعمل وفق نظام وتخطيط، متمنياً أن تكون لهم في حلب مثل تلك الجماعة.

وكانت العودة إلى التدريب قد أصبحت أكثر تركيزاً، ولم يتوقف المعلم عن توجيه التعاليم والملاحظات فيتقبلها المتدرب بشغف. وظهر عبد القادر كمن فطر على استخدام البندقية والتحرك بها خفيفاً كبهلوان في اتقان القفز والزحف، الإقدام والتراجع، كذلك الاختباء والظهور المباغت.

وقد توّج أبو محمد فترة التدريب التي أدخلت اليه البهجة باكتساب مقاتل، وقال فجأة:

"حان الوقت لاستخدام المسدس".

اعتبر عبد القادر القول مديحاً للبرابلو، فأخرجه من وسط دكة الشروال، وقبّل الكنز الذي يفخر به.

وابتدأ المدرب تعاليمه التي التزم بها التلميذ. كان إقدام عبد القادر على التصويب برغبة لم يشهد حرارة مثلها. وباتت البندقية لها شأن والمسدس له شأن، ولكن الرصاص واحد، كما أنّ النتائج هي نفسها في النجاح.

ومع بداية علامات المساء في زحفها على الفضاء، أعلن أبو محمد أن تناول الطعام قد حان، واذا عبد القادر أحسّ بالجوع

المفاجئ. كان قد أنجز مهمته في تدريب صارم فجاء وقت الطعام الذي لم يكن سوى أرغفة الخبز والجبنة القريش والبندورة والبصل. وكانت المائدة هي الأشهى من أي شيء، بل إنه العشاء الذي بات مدخلاً إلى عالم الثوار.

كان الراعي الشاب قد أطعم البغل وسقاه، فانطلق الرجلان في طريق العودة. وبدت سفوح التلال بالرغم من شحوب ضيائها فإن النور قد انفتح على عبد القادر، فكان خياله يكشف عن المعارك التي ستقوم بين الثوار والفرنسيين. فيلوح له من بين الصخور وميض نار الرصاص الذي جعل الجند والغرباء يتساقطون كأغصان متكسرة.

سلّم البغل للإسطبل القريب من الدار، فأكمل الرجلان مشوارهما إليها وهما يتبادلان حمل كيس البنادق. استقبلهما صاحب الدار، فإذا استقر بهما الحال أمر لهما بالطعام. وكانت ساعتان من الزمن قد مرت عليهما منذ مغادرة أرض التدريب، فجاءت صينية البرغل مع الدجاج فتحت لهما الشهية على ما قد يسمى بالعشاء الحقيقي وقد نسيا أمر ذلك العشاء المزيّف.

مسح أبو محمد الصينية، واذا ما شكر الله يطعمهم من جوع، ابتدأ يمتدح عبد القادر على انجازه للمهمة، وجعل يقول:

"وأنت ابو حلب أصبحت مؤهلاً للقتال إلى جانب الثوار".

وأكمل بلهجة آمرة لا تخفي المحبّة:

"تقضي ليلتك هنا لتعود غداً إلى بلدك بانتظار الإشارة فتعود".

وقال متكئاً على وسادة:

"بندقيتك تخصك لوحدك، اتركها مع مسدسك فهما بانتظارك هنا".

ولم يكن هناك فرصة في طرح السؤال الذي كتمه في صدره، فقال عبد القادر بصوت خفيض في الوقت الذي أغفى فيه أبو محمد، إن كانت عيناه ستتكحلان برؤية البطل هنانو، فهي الأمنية والرجاء. وما لبث أن افترش الأرض مسنداً رأسه على مخدة القش، وذهب في نوم عميق.

مع الفجر بحث عن الماء لوضوئه. أقام الصلاة وإذا بعبد القادر يفاجأ بصاحب الدار الذي لحق به في العبادة. وكان له دعاء في ختام صلاة الفجر أن يعيده إلى أرض الجهاد. واستعد العائد للمغادرة فتقدم بالشكر على الضيافة وإعداده للقتال، منطلقاً إلى ساحة البلدة.

احتل مقعده في الباص الذي امتلأ ليمضي بالركاب في الطريق إلى حلب. وكانت السيارة تطوي المسافة، فبات عبد القادر متطلعاً إلى العودة بعد أن فتح له باب الجهاد على مصراعيه. وانطلق ينشد في سره "طيارة طارت في الجو....".

باب الفرج قلب حلب، أصبح فيه وها هو يغادر كاراج البابا. عبد القادر اشتاق أمه فتسارعت خطواته عرج على (باب جنين) القريب فاشترى (البامية) التي ستثبت أنه سافر إلى منطقة (الجزيرة) التي اشتهرت به بالرغم من اختلاف طعمها وحجمها عن تلك القادمة من بساتين حلب، وكانت النسوة في حلب لا يعرفن شيئاً عن بامية الجزيرة، وأمه من بينها. وفي لقائه مع أمه استقبلته بالفرح والدهشة، فهي لم تعتقد انه سيعود بعد يوم. وقال يعطيها الكيس:

"البامية من بلدة الرقة يا أمي".

ولم يعنها الكيس فضمّت ابنها إلى صدرها وهي تقول إنَّ خبز التنور من غيرك يا ولدي لا يكون، وقالت الأم وقد غمرته بالقبلات:

"هل وفقت في تجارتك يا ولدي؟".

فقال الابن وهو يستريح على الدكة الخشبية في الحوش:

"أهمّ تجارة قمت بها في حياتي".

– ٤ –

لم يسجل على الأستاذ أحمد أن نطق بكلمة واحدة لها علاقة بما جرى لعبد القادر في سفره ولقائه بعدد من رجال الثورة. ظل

الأستاذ صامتاً أثناء خروجه من صلاة الجمعة في مسجد الحارة، بعكس ما كان يتلو الأدعية عقب الصلاة وكأنه شيخ تفرغ للعبادة. ولحق به عبد القادر ليهمس:

"متى؟ متى سأعود يا أستاذ؟".

وإن قد مرت أيام قليلة على عودة عبد القادر، فردّ الأستاذ بحرصٍ كان يتقنه:

"يختار الله ما فيه الخير".

وأضاف تحية الوداع، وانعطف في طريقه مسرعاً في خطواته. وتوقف عبد القادر عن السير ليردّ على التحية. جعل يفكر في معنى قول الأستاذ يقلبه على وجوهه، إلاّ أنه ما لبث أن تذكر ما كان يردد بالعمل على الكتمان، فهدأ معللاً نفسه بالطمأنينة.

وجعل يمشي كتائه لا يفكر. قطع الحارات والأزقة فعادت بعد قليل خطواته تولّد في صدره الوساوس. أتراه لم ينل بعد ثقة المجاهدين، أم أن أسلوبهم في العمل السري يدعو إلى الحذر. وتساءل إن كان جديراً بالثقة، وكان جوابه أنه أهل بها. وتوقف لحظة ليقول لنفسه إن كان ثوار الجبل عرفوا شيئاً عن وضع أمه التي لم يكن لها رجل غيره، أو أن الأستاذ أحمد حذرهم من ذلك خوفاً على العجوز، وهل بلغهم أن أمه لا معين لها في العيش غيره. وسواسه دفعه من جديد إلى متابعة السير.

واندفع عائداً إلى الدار يفكر في حلّ لوضع أمه. واذا ما وجد نفسه في مواجهتها فكانت تعتب عليه غيابه في يوم عطلة وقد تجاوز حدّه. وعادت من جديد إلى أسطوانة الحديث عن الزواج. خيّرته في الموافقة على فتاتين، إلاّ أنه لم يعر أي اهتمام لهما، وانسحب إلى غرفته مدعياً انه متعب يريد شيئاً من الراحة.

مع بداية الأسبوع حمل عبد القادر معه نيته في مفاتحة صاحب الخان في أمر. دخل غرفته، فكان مشغولاً بالاستماع إلى راديو الشرق الأدنى. همهم وسعل. فاستمر الحاج في استغراقه. بعد قليل يفاجأ بعبد القادر، إلاّ أنه تساءل عن سبب قدومه. كان الشاب عبد القادر في وقوفه الحائر وهو يستجمع أفكاره ليجدها بعد قليل مستعدة في إطلاقها. قال إن الأحوال صعبة والمعيشة تتعثر، وقال إن كانت هناك أعمال اضافيه يتمنى أن يقوم بها فتسمح بزيادة أجره. إلاّ أن صاحب الخان اشتكى من سوء الأحوال بعد أن وضع الحاكم الفرنسي يده على أهم الغلال، وهتف بحرقة:

"ألاّ ترى يا ولدي، وأنت أفضل عامل في الخان، ألاّ ترى ما وصل إليه حال التجارة في البلاد".

وصاح بصوت خفيض منددا بالظَّلَمَة المستعمرين أعداء الله والناس.

بعد يأس من صاحب الخان، فكر عبد القادر في الأقارب لمد يد المساعدة، إلاّ أنه بالرغم من بعض الأهل الذين أنعم الله عليهم

بحياة أفضل لا يجرؤ على الطلب منهم مساندته دون سؤال عن سبب غيابه. وتذكّر قول الأستاذ أحمد عن وجوب الكتمان والتستر في العلاقة مع الثورة، فكان يزداد حرصاً على سرّه، فهو لا يمكن أن يفشي به ولو كان لأقرب الناس.

وما كان أمامه سوى الأستاذ يشكو له حاله. التقى به في صلاة الجمعة، وجلس إلى جانبه، ومال عليه هامساً أثناء الخطبة:

"أستاذ، أنا بحاجة إلى الحديث معك بعد الصلاة".

فكانت إيماءة رأسه بالموافقة، وإذا ما انتهت الخطبة والصلاة والدعاء، وخرج الاثنان من المسجد، افترقا كمن لا يعرف أحدهما الآخر.

كان يلحق بالأستاذ عن بعد يتشاغل بالسلام على واحد من الحي، ويتوقف عند طفل يداعبه، إلاّ أنه لم يغب لحظة عن متابعة الأستاذ الذي انتهى به المطاف عند باب المدرسة. دفعه حرصه إلى الاطمئنان على خلو الزقاق، فادخل الأستاذ المفتاح في القفل، بينما يومئ إلى عبد القادر بالدخول.

ومن جديد دخل المدرسة، وأصبح الاثنان في الحوش الصغير ليقفل الباب عليهما. وكانت المدرسة تشغل داراً قديمة بغرفها القليلة، وكان الأستاذ هو المدير والمعلم والآذن. ودعاه إلى غرفة الإدارة وهو يقول إننا نستطيع فيها التحدث دون رقيب.

ملأت خارطة سورية جداراً في الغرفة الصغيرة، فاجتذبت اهتمام عبد القادر وهو يتأملها باعجاب، وقال متحسراً:

"لم أكمل تعليمي، وكنت قد تعلمت القراءة والكتابة عند الشيخ، ولم يكن عنده مثل هذه".

واقترب من الجدار يلامس بأصابعه مواقع في الخارطة بقدسية تشابه ما يتم التمسح به لمقام زكريا في الجامع الكبير، وجعل يردد بصوت خفيض:

"بلادنا جميلة وتستحق ان ندافع عنها ضد جنود الاحتلال".

وقال الاستاذ مربتاً على كتف عبد القادر:

"لهذا كانت الفرصة لك للجهاد من أجل الدفاع عن استقلال البلد".

وجعلت الكلمات تنزل على صدر عبد القادر برداً وسلاماً. أيقن أن في قول الاستاذ اعترافاً بالقبول في صفوف الثورة. سعادته لا يفوقها سوى الالتحاق بأهل الجهاد. ومسح الخارطة بعينيه وهو يتوجه بسؤال الأستاذ:

"اعذر فضولي يا أستاذ أحمد لأسأل أن كنت تشارك في القتال مع الثوار".

فما كان من المعلم إلاّ أن وقف على قدميه ليتقدم خطوتين ثم توقف، وقال:

"أليس عملي في التعليم جهاداً من نوع آخر!".

ومال على عبد القادر ليهمس في أذنه:

"موقعي هنا، ألا يعني لك شيئاً".

وأعقب القول صمت داخله سقسقة العصافير التي اتخذت لها موقعاً على أغصان شجرة الجوز الوحيدة في حوش المدرسة. حفزه صوت العصافير ليقول شيئاً، لكنه استمر في سكوته. ثم بعد قليل هبّ عبد القادر واقفاً وفي فمه كلام كشف عنه ارتعاش شفتيه. وفاجأه الأستاذ بالقول:

"ألم يكن عندك شيء لتقوله لي؟".

ابتدأ عبد القادر بشيء من همس غير مسموع، ولكنه بالرغم من تعثر كلماته صرّح بالقول:

"عندي شكوى يا أستاذ. الشكوى لله، ولكن ليس لي غيرك من دون كل الناس أحادثه".

وجاءه الجواب في أني استمع إليك فاطلب. وتدفق عبد القادر يحكي عن أمه التي قد تكون وحيدة يوم التحاقه بالثورة، فهو لا يريد لأحد أن يعلم شيئاً عن سبب غيابه ولو كانت أخته. وقال إن غيابه سيوقف أجره من الخان، فمن سيعين أمه على مواجهة الحياة. وقال:

"أنا الوحيد الذي يدخل عليها بالطعام، ويؤمن لها احتياجاتها".

وأشرقت ابتسامة في وجه الأستاذ. اقترب منه فكانت للشاكي مفاجأة لسماع المعلم يقول:

"لا يمكن للخير أن يغيب عن أهل حلب. إنهم يستجيبون عادة لندائنا في مساعدة المجاهدين وأهلهم".

وقال الاستاذ يطمئن الخائف على أمه:

"الاّ تظن يا أخ عبد القادر ان مقاومة الاحتلال سيساندها الناس. أفراد وجمعيات خيرية وآخرون لن يعجزوا عن رعاية امرأة هي أم رجل من الثوار. ليطمئن أخي على أمه فهي لن تبقى وحيدة من غير معين".

وأضاف بالقول إنَّ أهل حلب لا ينقصهم فعل الخير.

لمعت عينا عبد القادر بالدموع. مسحها واحتضن الأستاذ بذراعيه. كان عاجزاً عن التعليق بكلمة، ولم يستطع أن يعبّر عن امتنانه فكان الضم إلى صدره كافياً. مرة أخرى قال الأستاذ هامساً:

"الزعيم هنانو أيضاً حاضر أبداً لإعالة المحتاجين من رجاله".

وقال الأستاذ مودعاً وهو يرافق عبد القادر إلى باب المدرسة:

"لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

وانطلق عبد القادر إلى الدار، طاوياً الطريق بخطوات تشبه العسكر، بينما يردد متمتماً:

"طيارة طارت في الجو.. فيها عسكر فيها ضو.. فيها ابراهيم هنانو.. مركب ابنو قدّامو".

كانت قد انزاحت عن صدره صخرة عاش فترة تحت ثقلها، ولكن الاستاذ أحمد فتتها وأحالها إلى كومة ورد.

وما إنْ دخل الدار، حتى همّ على أمه التي كانت تكنس أرض الحوش فلم تلحظ حضوره. احتضنها ليقبل رأسها ويديها، فما كان منها إلاّ أنْ هتفت في وجهه:

"لن تعترض الآن على البنت التي سأخطبها لك. ولن تندم يا ولدي".

فإذا به يمسك بها يحاول ان يراقصها ويقول:

"وعندي لك ما هو أهم من العروس يا أمي".

"وهل هناك يا ولدي ما هو أهم من العروس الحلوة ابنة رئيس مخفر".

إلاّ أن الابن لم يملك سوى ابتسامة غامضة وهو يتساءل فجأة عن طعام الغداء لأنه سيموت من جوع.

-٥-

جاءت الدعوة. أخيراً وبعد انتظار حسبه دهراً، تلقى الإشارة من الأستاذ في همسه يبارك توجهه إلى جبل الزاوية. وكان يقول مساء في المدرسة:

"ها قد صبرت ونلت. شرف الجهاد من حقك. أنت يا عبد القادر من رجال الثورة".

تساءل "متى؟" فقيل له" منذ الغد"، فلم يستطع أن يتمالك نفسه حتى احتضن الأستاذ فلا يقدر على منع دموع تجري من عينيه.

غادر عبد القادر وهو يمتلئ بالنشوة. وها هي اللحظة التي حسمت القلق، فكانت تشكل له حياة جديدة. ومن حارة المدرسة انتقل إلى صاحب الخان في داره. لقي الترحيب ولكن الحاج تساءل عن سبب الزيارة وإن كان من أمر طارئ أو مكروه حدث، فطمأنه عبد القادر بأنه سيغيب بضعة أيام في سفر إلى أقاربه في الريف، فلم يلق أي استفسار عن سفره، بل تمنى صاحب الخان له السلامة.

تملكه العجب وهو يرى إلى سهولة موافقة الحاج، فتساءل عن سرها.

وطفق عائداً إلى داره. أخبر أمه بالمهمة التي كلّفه الخان بها للإشراف على توريد البضاعة إليه، فما كان من العجوز الاّ أنْ دعت له بالتوفيق وهي ترفع ذراعيها إلى السماء تخاطبها كي يصبح ابنها شريكا في الخان لما يبذله من جهد، أو أنه سيملك دكاناً، بل خاناً يصبح فيه سيداً. ولم تتوقف عن مخاطبة السماء في أن يوفق ابنها في الحصول على ابنة حلال.

ليلة مرت بين نوم ويقظة. وكان يتقلب على فراش ترقّب الفجر والتوق إلى صباح ينطلق فيه إلى الجهاد. واذا ابتدأ الضوء يخرج من جوف العتمة، تسلل عبد القادر من الفراش، وخرج إلى الحوش للوضوء. قام بالصلاة ليتوّجه بالدعاء للثورة ورجالها. وفي طريقه إلى الكاراج مشى متباهياً تدق أقدامه أحجار الطرقات السود، وكانت خطواته تلامس الزفت في الشوارع العريضة.

الكاراج مرة أخرى، ولكن الباص الذي لم يتحرك بعد تمنى له أن يقفز طائراً في الهواء، أن يحلق ويعبر الفضاء بين حلب وبلدة الجهاد. الباص يربض على الأرض، فلا ينقصه سوى قلة من الركاب، فاستعجله عبد القادر في سرّه فلم يتحرك. وكان مغمضاً فإذا اكتمل العدد هدر المحرك ليتحرر الباص من سكونه. واستمر أبو حلب الذي أسكره لقبه في إغماض عينيه سارحاً بخياله في شعاب التلال التي يترصد الرجال برصاصها جنود الاحتلال. ويبدو أن حرمانه من نوم هانئ في ليلته دفعه إلى استسلام جسده لإغفاء عميق، فسبح في بحيرة الحلم.

قيل له ارفع رأسك أنت. قال اسمي أبو حلب. وسمع أن يرفع رأسه مرة أخرى، ففعل ليرى بأم عينيه رجلاً ملثماً أطل عليه من صخرة عالية وهو يلوح بذراعه لرجال وقفوا على تل مقابل، وكانوا يرفعون في الهواء بنادقهم يردون على التحية، ويتساءل عبد القادر عن الملثم من يكون، فجاءه الصوت معلناً بالفم" أنا ابراهيم هنانو" فارتفع صوته في الهواء" وأنا أبو حلب" وقال" أريد أن أرى الزعيم، أتبارك به وأباركه"، فتجمع همس في الفضاء لتسمعه التلال وأعماق الشعاب وما لبث أن تحول إلى هتاف" أنت تراه بقلبك، وأنت تشعر به كما يشعر بك".

وتوقف الباص فجأة. انزلقت دواليبه على اسفلت الطريق لتتمكن المكابح من لجمها فما عاد يتحرك. وهكذا حدثت الهزة منتزعة النائم

من غفوته الحالمة ليواجه مع الركاب فزعاً. ضربت رؤوس بمقدمه الكراسي وسقط بعضهم على أرض الباص. صعد جنود فرنسيون ببنادقهم إلى الداخل قادمين كالأشباح من أسفلت الطريق. هتف جندي بلغة عربية ركيكة أن يلزم كل من الركاب مقعده حتى ينتهي التفتيش.

لبث الجميع ساكناً لا يأتي أحدهم بحركة أو صمت، فكأنما الركاب اعتادوا على هجوم الجنود على سفرهم. وكان عبد القادر يحمد الله على انتقاله دون سلاح وإلاّ تعرض لخطر تفتيشه، وكان مستعداً وهو لا يبالى بالخطر. فتّش الكل، وبحث في السلال والاكياس، وأُنزلت من الرفوف الحقائب واللفائف، فكانت البراءة ومن بعدها انصراف الجنود بعد يأس.

ويمضي الباص في طريقه. بعد قليل تساءل راكب في الصفوف الأولى إن كانت هناك إخبارية كاذبة، وهتف آخر بقوله إنه من الجنون حمل سلاح في الطريق المؤدية إلى جبل الزاوية أو بلدة أريحا. وأثار القول عبد القادر الذي ردد في سره:

"لا بد أن دعاء الوالدة يرافقك في حياتك".

واذا ما حط الباص رحاله في ساحة البلدة، ترجل المتلهف للقتال وقد تملكته المشاعر بأنه وضع أقدامه على أرض الجهاد. ودون دليل توجه إلى الدار مسرعاً وهو يستعرض صور تدريبه على تصويب النار فكان بشوق إلى رؤية أبو محمد الذي علمه. مشى في الحارات

كواحد من أهلها، فإذا مرّ بعابر حيّاه بالسلام. واستقبله صاحب الدار، وقاده إلى الداخل فكان آخرون لم يعرف أحداً منهم من قبل، لكنهم رحبوا به على أنه (أبو حلب). كان اللقب قد ألصق به فزاد فخراً به، بينما الرجال الثلاثة يمازحونه باعتزاز كمن كانوا يعرفونه من قبل.

وبعد صلاة العصر تسلل الثوار الأربعة من المقرّ خرجوا منفردين الواحد تلو الآخر، ليجتمع الشمل عند نقطة في واحد من التلال. وكانت بنادقهم ومسدساتهم تخفيها العباءات التي التفوا بها، فكشف رئيسهم عن الهدف الذي جاءوا من أجله. مقر القوات الفرنسية الذي كان علمها يرفرف عليه، بات مراقباً بالمنظار المكبر يرصد الحرس والغرف التي تجمع فيها الجنود التي جعل يصفها الرئيس لمجموعته. كان الرجال بانتظار المساء ليحدث الهجوم.

الشمس تغيب وراء الأفق، يبدأ ظلام شفيف بالزحف على فضاء التلال، فكانت ساعة الصفر. ابتدأ الرجال يتقدمون في قوس ما لبث أن اتسع ليباعد بينهم. يقتربون من المقر الفرنسي وقد أصبحوا مثل حضن يريد أن يطبق على المخفر برغبة القضاء عليه. رمى رجل بقنبلته اليدوية فلحق آخر برمانة فجرت جانباً من جدار. وانهال الثوار بالرصاص، فكان عنصر المباغتة ما أوقع الجنود في الفخ. سقط البعض وسعى الآخرون إلى أسلحتهم، وما أن تمكن أحدهم من استخدام الرشاش ليطلق الرصاص، ابتدأ الثوار بالتراجع فكان انسحابهم مفاجئاً كما حدث في الهجوم. واستمر تحصن الجنود داخل

البناء ليتيح للثوار فرصة العودة من حيث أتوا. أصبح الثوار من جديد على التل المقابل للمخفر، آنذاك ابتدأ الجنود بالخروج إلى العراء وهم يصوبون النار على أشباح لا وجود لها إلاّ في مخيلتهم.

استلقى الرجال الأربعة خلف ساتر صخري. التقطوا أنفاسهم بينما يشتعل الرصاص عن بعد، فكان الرئيس يعلن في ارتمائه على سطح التل وعيناه تتعلقان بظلمة السماء:

"اعتقد يا رجال أننا وفقنا. كانت المعركة من أنجح ما تم في هجوم على مقر لهم".

وتوقف إطلاق النار، ويبدو أن الجنود قد دخلوا المخفر لإحصاء قتلاهم وجرحاهم وما لحق بالمكان من خراب.

كان المركز الفرنسي في موقعه على أرض منبسطة ما بين التلال قد أُحدث لتأمين احتياجات الدوريات من وقود ونخيرة، فأغلب الجنود من إداريين لم يعتادوا على المفاجآت من ثوار الجبل. وقال رئيس الأربعة أن الليلة تباركنا، فلم يكن هناك ما يكشف موقفنا أو تحركنا. وعلّق على هجومهم على المركز بانه كان تأديباً للقوة الفرنسية مشيراً إليها بأننا (علّمنا عليها). وضحك يقول:

"كانت حركة تأديب لأهم مركز لتموين قواتهم المعتدية".

وعلق آخر من الرجال بفخر:

"خرجنا عليهم كشياطين الليل لنصيب جنودهم بالجنون".

وسمع عبد القادر يقول هامساً:

"تمنيت لو أننا عرفنا عدد جنودهم".

فما كان من القائد أن قال وهو يداعب بندقيته:

"لم تكن أهدافنا في قتل الجنود، وإن كان منهم من لقي مصرعه، بل كانت في إثارة الذعر في صفوف الاحتلال. أقول لكم إن التأكيد على وجود ثورتنا مازال مستمراً، وهو أفضل ما لدينا".

كان قد مضى على اختباء الرجال على سطح التل أكثر من ساعة، فإذا تأكد لهم أن الجنود قد عادوا إلى مقرهم، انطلقوا في طريق العودة. وفي غضون ساعة من الزمن ضمتهم الدار إليها من جديد. وكان سؤال صاحب الدار للعائدين من معركتهم:

"ترانا وفّقنا في المهمة وتحقق الهدف!".

واستوى المحارب الذي قاد الهجوم ليهتف بالقول إنَّ المهمة قد نجحت، وأوضحت كلماته أنَّ الهدف هو إقلاق الاحتلال فالثورة مستمرة حتى يخرج آخر جندي فرنسي من بلادنا. وتساءل صاحب الدار فجأة:

"ما عدد الضحايا المقدر في صفوف العدو؟".

ولم يكن هناك من أحد يملك الجواب، ولكن القائد قال:

"سنعرف غداً ما يعلنه العدو عن ضحاياه".

واستكمل قوله هاتفاً بحماسة:

"ذعر العدو من ثورتنا هو الأهم، وليس في قتلاه".

وتدخل عبد القادر في محاولة منه لتطويق خلاف محتمل، قال:

"لم أعرف من قبل شجاعة كتلك التي لرجال المجموعة. لقد رأيت بأم العين ما فعلته الرمانات التي سقطت كالشهب على مقر العدو، وكان الرجال من فعل ذلك".

وقال بحماسة مؤمنة انني تعلمت وآمنت بأن الاحتلال الفرنسي لا مكان له في بلادنا.

ولم يكن كلام عبد القادر ما منع الرجال من خلاف فحسب، بل جعل الجميع يحيون أبو حلب. وهتف صاحب الدار بالدعوة إلى عشاء ما لبث الجميع أنْ استجابوا له وهم يهللون. اجتمعوا على صينية واحدة وهم يأكلون بشره قبيلة جائعة. وفي الصباح الباكر كان عبد القادر يستعد للرحيل حاملاً معه إلى مدينته موعداً للعودة إلى عملية جديدة.

-٦-

اشتكى الحاج صاحب الخان من تكرار غياب عبد القادر. كانت لا تمضي أسابيع قليلة حتى يطلب الإذن في الغياب لأمور تتعلق بأقارب له في الريف، فكان الحاج أن هتف غاضباً:

"من أين لك كل هؤلاء الأقارب يا عبد القادر. لم أسمع من والدك شيئاً عنهم".

ويعلل عبد القادر بحجة مرضهم وأنهم يطلبون المساعدة، إلاّ أن صاحب الخان هب واقفاً بغضب بعد أشهر من نفاد صبره، وقال يصرخ في وجهه:

"لن أسمح لك بأي غياب عن عملك في الخان منذ اليوم. اسمعني جيداً فأنت لن تغيب بعد اليوم".

وعاد الحاج ليحتل مقعده. كان هادئاً وقد صمم على ذلك منذ اللحظة، وقال:

"أنت تريد أن تترك العمل في الخان. هذا شأنك يا ولدي، ولكن تذكّر انك معي منذ صباك".

وتطلع إلى النافذة وكأنه يحادث نفسه:

"حسناً فلك ما تريد. لتذهب حيث تريد. حياتك ملك لك".

فوجئ عبد القادر بقرار الحاج، ليحسب أن الأرض تميد به. لم يستطع أن يتصور نهاية له كتلك. كان الحاج بمثابة والدٍ له، وها هو الأب يتخلى عنه. كان يريد الحاج أنْ يلتفت إليه، لكنه لم يفعل، فخرج من الغرفة ليستقبله الضياع في ساحة الخان التي كان يتحرك فيها بحرية إلاّ أنها أطبقت عليه.

مشى بخطوات متثاقلة وهو يزحف بنعليه على البلاط القديم. كان عمال الخان يلقون عليه السلام ولكنه بدا ذاهلا عن كل شيء فلم يعر اهتماماً لأحد. تكوم عبد القادر على نفسه جالساً على أكياس

العدس. كان يفكر في كل ما قاله الحاج الذي بلغ أسماعه كحجارة اخترقت أذنيه. أتكون أزمة عيش التي ستبني سدا في طريقه، أم أنها هوة قد تباعد بينه وبين المشاركة في النضال ضد العدو المحتل. وماذا عن أمه التي لا معين لها سواه، ومن طرف آخر الانخراط في ثورة هنانو التي ساهم فيها؟. ويأكل القلق قلبه وينهش أحشاءه، يفكر ويحفر في أعماق مشكلته فلا يجد سوى اللجوء إلى الأستاذ فيطرح همه أمامه، إلاّ أن صوت الحاج نادى عليه. الرجل يسمع نداءه فاستقام جسده. استجاب فأسرع.

أصلح هندامه وكانت نقرات أصابعه على الباب كخربشة خجول، فإذا أذن له بالدخول لمعت عيناه بالفرح. تقدم خطوتين ممتثلاً لطلب الحاج بالتقدم منه، ففعل. وكان صاحب الخان يجلس هادئاً بوقاره الذي عرف به، فأشار إلى عبد القادر بالجلوس ليلبي طائعاً ولكن بفرح يخفيه. قال الحاج:

"ما سرك يا ولدي، وليكن كتابك مفتوحاً لأرى ما فيه. اعتدت منك الصدق، وأتوقع ذلك".

أكان عليه البوح بسره؟. ولكن عبد القادر لزم الصمت خوف الإفلات من العهد الذي قطعه على نفسه. قال الحاج:

"لم يكن بيني وبينك سر تخفيه عني. أصدقني يا ولدي حكايتك مع الغياب".

وهب الحاج واقفاً يسنده عكازه، وهمس راجياً:

"ألم يكن والدك رحمه الله صديق عمر، وأنا مثل والدك".

فرفع عبد القادر رأسه تلمع في عينيه رقائق دمع، وقال متوسلاً:

"ارحمني يا حاج فأنت لي الأب من بعد المرحوم".

وتقدم الحاج نحو المقعد المقابل الذي جلس عليه عبد القادر وهو يقول:

"إذا كنت تخفي عني مشكلة ما، فما من مشكلة الاّ ولها حل".

وتساءل فجأة وهو يحتل مقعداً أمامه:

"أهناك امرأة؟ هيا ولا تُخف أي شيء عني. أنت رجل تحبه النساء".

وأعقب الحاج بالقول الذي اتسم بالحزم:

"لا بأس في امرأة صالحة. بل القصد بأني أخطبها لك، والله على ما أقول شهيد".

ويتساءل عبد القادر في سره عن طيبة هذا الرجل الذي ذهب بعيداً في أبوته، وهتف قائلاً:

"لم تكن هناك امرأة، صالحة أو غيرها. لم يكن الأمر هكذا".

وخيّم الصمت على الحاج. كان يفكر ويقلّب الأمر على وجوهه، وما لبث ان تجهّم في قوله:

"إذا لم تكن المرأة ما شغلك، فما هو سبب غيابك المتكرر عن الخان؟".

واقفاً ينفجر بالجواب وقد شدت عروقه:

"أقسم انه لم يكن هناك سوى السر الذي ائتمنت عليه فلا أبوح به".

"وما هو هذا السر الذي أقسمت على إخفائه".

كان هو سؤال الحاج الذي لم يتزحزح من مكانه، فما لبث عبد القادر الاّ أن توجه الى الخزانة الخشبية القائمة خلف المكتب. أخرج منها لفة قماش حريري مال لونه الأخضر إلى سواد خفيف. وكشف عن محتواها، فكان القرآن الكريم. وضعه أمام صاحب الخان وهتف راجياً ان يضع كفه عليه ويقسم وقال:

"هذا كتاب الله، والقرآن بيني وبينك فأقسم عليه".

بدت الدهشة على وجه الحاج وقد أخذته مباغتة الطلب. وتحول إلى حيرة تملكته وهو يقول:

"علام أقسم يا عبد القادر؟ أحذرك يا ولدي فالقسم خطير".

"أن تحفظ السر. أَقسم يا حاج أن تحفظ سري".

فظهر الغضب على وجه صاحب الخان، وهتف:

"السر.. السر! ماذا تريد مني يا رجل؟".

قال عبد القادر وهو يعود إلى هدوئه:

"ألست مع الزعيم ابراهيم هنانو. لا أظن أنك لا تؤمن به وبثورته".

آنذاك عاد وجه الحاج إلى سماحته وهو يردد بصوت خفيض:

"ما شأن الزعيم بكل هذا؟".

واعتدل في جلسته وهو يضم عصاه بين ساقيه، قال:

"ابراهيم هنانو يا ولدي تاج رأسي. الزعيم فخر لكل البلاد".

وانتفض عبد القادر في وقفته ليلتزم وضع جندي في صفه، ليقول مندفعاً:

"التحقت برجاله. أنا مع رجال الثورة في جبل الزاوية".

وقرأ أثر قوله على وجه الحاج، حاول أنْ يستطلع فعله عنده. وأضاف قائلاً:

'كان غيابي عن الخان بسبب التحاقي بالثورة، أؤدي فيها واجبي وأعود".

ومرة أخرى تقدم من الحاج بالقرآن الكريم وهو يقول:

"اقسم يا حاج، فأنت والدي، أن تحفظ سري".

أخذه الذهول، لكن الحاج ما لبث أن وضع كفه على الكتاب مقسماً بألاّ يبوح بالسر لأي مخلوق.

كانت معركة القسم قد دفعت عبد القادر إلى الاسترخاء على المقعد، بينما الحاج قد أغمض ليعود برأسه إلى خلف. بدا الاثنان وكأنهما خرجا من معركة انتصرا فيها. بعد قليل رمق الحاج الجالس أمامه فكانت عيناه تفحصان عبد القادر، وهو يحاول أن يقرأ في وجهه أثر القسم عليه، ليحس أن الشاب صادق في سره، وأنه تسبب في طمأنينة له. وكان عبد القادر مازال يقلقه عذاب الكشف عن سره

الذي احتفظ به في صدره فلم يسبق له أن كشف عنه. وفجأة استوى الحاج في جلسته وانتصب واقفاً يسنده عكازه، ليميل على عبد القادر فاحتضنه، وطبع على جبينه قبلة وهو يقول:

"اغفر لي يا ولدي لومي لك على الغياب المتكرر. هل تغفر لي؟".

وقال عائداً إلى المقعد مؤنباً نفسه:

"لن أسامح نفسي على الشك، فلم تكن هناك امرأة وأنت تجاهد مع ثوار الجبل".

لحظات صمت مر بها الاثنان، لينطلق الحاج بعدها بالقول:

"اسمع يا عبد القادر ما سأقوله لك. أجرك من حقك في غيابك وحضورك. وأمك ستكون في عنقي، فلا تحمل همها يا ولدي".

مع بداية المساء خرج من الخان. كان ما يزال يحمل بداخله ذلك التأثر العميق بموقف الحاج منه ومن ثورة الجبل، والذي كشف عن حقيقة ما يكنه للزعيم إبراهيم هنانو. وقد شغل في طريقه بأمر شكل له قضية أقلقته. هل يُعلم الأستاذ بأنه أفشى السر لصاحب الخان، أم أنه يبقي الأمر بينه وبين الحاج. إلاّ أنه وجد نفسه دون قصد عند المقهى دخله فكان الرفاق يستقبلونه بالترحيب. وإذا ما فاجأه أحدهم بالسؤال عن سرّ شروده لحقه بالقول:

"هنيئاً لها، للتي تشغل بالك. أنت يا صاحبي غبت كثيراً عنا".

وعلق آخر ساخراً وهو يراقب الماء بفقاقيعه في نارجيلته:

"ماما وترجمتها والدتك، هل تحتمل ضرة سرية لها تنافسها؟".

الاّ ان عبد القادر لم يأبه لأي من التعليقين، وقال كمن يحدث نفسه:

"كتب على الإنسان ما سُجّل في أوراق القدر".

فقال آخر على القول ممازحاً:

"حرمانك من الزواج على سنة الله ورسوله، كتب عليك".

فلم يملك عبد القادر من كل هذا سوى ابتسامة رسمت على وجهه، وقد رافقت كلامه:

"ما كتب علينا هو من إرادة الله".

ولم يشرب الشاي الذي أحضره صبي المقهى، فهب واقفاً ليرمي بالتحية على مجموع الرفاق، وخرج والعيون تلاحقه بالغرابة من تصرفه.

وما أن دخل الدار حتى استقبلته أمه بخبر من عثر على النصيب. أعلمته أن صبية لا يحتمل القمر جمالها، فما كان من عبد القادر الاّ ان هتف متعباً:

"يا أم عبده، ارحميني".

فأصيبت العجوز بالذهول بينما هو ينسرق داخلاً إلى غرفته.

عاد من قتاله مع الثوار حاملاً معه آثار جراح. وكان هجوم على قافلة الجنود الفرنسيين في مرورها بواد مفاجأة للطرفين، مما أسفر عن مقتل جندي فما كان من أهل القافلة إلاّ الخروج بمدافعهم ورشاشاتهم التي أمطروا بها الثوار، فكان أنْ تفرقوا كل ينجو بنفسه، مشتتين من هول النيران التي خرجت عليهم من قلب الشاحنات وكأنها جهنم. لم يحسب الرجال لتلك القافلة قوتها المستترة ظناً منهم انها فريسة سهلة. وهكذا شتتهم الذعر فانسحب الثوار يطلبون النجاة في شعاب التلال.

وكان قدر عبد القادر في هروبه أن تزلّ قدمه ليقع في حفرة تناثرت داخلها صخور صغيرة. وبقي فترة مغمياً عليه فتح عينيه بعدها ليتلمّس جراحه. إلاّ أنه لم يستنجد بأحد من الثوار، وظل أسير صمته يكبح آلامه بالصبر.

مرّ على جنون النيران الفرنسية ساعة أو أكثر، ولكنها أخيراً ذهبت إلى هدوء فمضت في طريقها دون أن يترجل أحد منها. وكان أن تجمع رجال الجهاد بعد تفرق، فكان السؤال واحداً هو أين أبو حلب، فابتدأ البحث عنه. وانتشرت الجماعة في الظلمة تفتش الشعاب ونتوءات الصخور، لاعتقادها بانها ستجده. واذا ما نال التعب الرجال وقاوموه، عُثر على عبد القادر مستلقياً في حفرة يئن بصمت يخشى

لفت أسماع العدو إليه. نقل المصاب على ظهر واحد من الرجال، وما لبث أن تناوب عليه الآخرون. وما أن وصل الدار حتى استدعي الطبيب للكشف على عبد القادر، فضمدت جراحه ورضوض قدمه، ليطمئن شريطة ان يبقى في الفراش أياماً. ولم ينقطع عنه الرجال يواسونه ويرددون الحكايات عن معارك قديمة للثوار. وقد وجد عبد القادر تلك الجماعة تحيطه بالمحبّة والعناية ما كان يفوق رفاق المقهى، إلاّ أن الحاج كان مستثنى، فقد كانت أبوته تفيض عن الذي أنجبه من صلبه.

وفي أيام الاستشفاء التي أمضاها في دار الثورة كما كان يحلو له ان يذكرها دوماً، وقعت على مسامع عبد القادر أخبار مقاومة الثوار للفرنسيين في أكثر المناطق السورية بدءا من جبل العرب التي قاد رجالها سلطان باشا الأطرش، مروراً بغوطة دمشق، وجبال ومدن الساحل التي كان الشيخ صالح العلي رمزاً لها. وهكذا اتسعت الرؤية عنده فشملت مساحة الوطن ليتأكد له حسن اختياره بالالتحاق بثوار جبل الزاوية، فتحولت جراحه إلى أوسمة علقت على وجوده متمنياً ان تتوّج باستشهاده.

كان الوقت ظهراً عندما دخل عبد القادر داره لتستقبله الأم بالعناق المعاتب، فغيابه عن الدار قد طال مما تسبب بالقلق والخوف عندها. واكتشفت شيئاً من جراحه ولاحظت التواء قدمه، فصحبته فزعة إلى دكة خشبية في أرض الحوش. التصقت به وهي تمسح على رأسه

لتكشف الكوفية عن تلك الجراح، فصرخت من فزع تسأل عن اللصائق تغطي جوانب من شعره الذي بات كثوب مرقع. كانت تتلمس رأسه وقد استسلم لها لتقول:

"من فعل بك هذا يا ولدي؟".

فلم يعلق على سؤالها بكلمة، فعادت تلح بالاستفسار:

"من فعل هذا في غيابك الطويل فعدت إليَّ والجراح تغطي رأسك".

أمسك عبد القادر بذراع أمه ليقودها من أرض الحوش إلى غرفته. جلسا على الأريكة وهو يستجمع أفكاره، فاخترع قولاً همس به:

"اعترض قطيع الغنم السيارة التي نقلته إلى حدود مدينة الحسكة. انقلبت السيارة، وهذا كل ما حدث يا أمي".

فعادت العجوز إلى تفحص الجراح، لتهتف بخوف نبع من قلبها:

"أسفارك لا تعجبني يا ولدي".

كان عبد القادر في تلك اللحظات يجاهد النفس كي لا ينزلق إلى هوة الاعتراف بالحقيقة خوفاً على أمه من وقع الخبر عليها. صراع بداخله دام دقائق، لكنه انتهى بقيام العجوز واقفة وهي تعلن عن ذهابها إلى المطبخ لإعداد الطعام لحبيبها، واذا ما ابتعدت خطوات هتف الابن:

"اشتقت إليك يا أمي".

وبدا الأمر محسوماً لصالح كتمان السر المتعلق بثورة جبل الزاوية وما لحقها من جراح عبد القادر.

عصراً توجه في الطريق إلى الخان ليقابل الحاج. فرح صاحب الخان بالغائب ليحتضنه بترحيب أبوي وهو يقول ان قلقنا عليك يا ولدي فقد طال غيابك. وإذا ما كشف العائد عن جراحه، انتفض الحاج مذعوراً وهو لا يمتلك نفسه من غضب، ويصرخ:

"أذاك الجنود، لعن الله الفرنسيين".

وبينما يتفحص جراح عبد القادر هتف بإعجاب ليقول إن ما أصابه يحتسب شهادة على الرضا بما كتب لنا، وسيظل علامة على الإيمان القوي بالجهاد كفرض. وفي جلوسه على المقعد خلف مكتبه طلب راجياً ان يقص عليه تفاصيل ما حدث له. ووجد عبد القادر نفسه مندفعاً يحدثه بما جرى له دون ان يشير بكلمة إلى الموقع، ودون أن يدل على مقر اقامته التي عولجت إصابته فيها. آنذاك لم يتوقف الحاج عن الدعاء للبطل ابراهيم هنانو ورجاله من المجاهدين، فهلل وكبّر، وتحسر على نفسه لأنه بات عجوزاً لا يسمح سنه بالمشاركة بالقتال مع الثوار. وبلغ التأثر بعبد القادر حداً دفعه إلى الاقتراب من الحاج وطبع قبلة على يده فيما يهمس بأن أمثاله قلّة في البلد، ولكن الحاج انتفض غاضباً ليقول:

"هل تظن أهل حلب في حبّهم وتقديرهم للزعيم يختلفون عن رجال الثورة؟".

ومضى عبد القادر خارجاً من الخان وقد حمل في أعماقه الفخر بالحاج وبنفسه. جعل يردد هامساً بأن ما حصل عليه من نعمة الجهاد وتعاطف الحاج، هو أقصى ما يمكن لشاب مثله أن يناله. وقادته خطواته دون إرادة إلى المقهى. وهناك وجد المكان محتشداً بناسه وهم ينصتون إلى الحكواتي الذي تصدّر المكان يقرأ في سيرة عنترة متفاعلاً معها بجسده ويديه. وبدا أن الحكواتي يدير معركة بتمثيله لفصل من السيرة، فاتخذ عبد القادر كرسياً له عند المدخل، وكان بسمعه ووجدانه يتابع شخصية عنترة ليسقطها على إبراهيم هنانو، فها هي سيرة البطل القديم تظهر في البطل الحي في الزمن المعاصر. وكان عبد القادر يتمايل طرباً من آهات رجال المقهى وتهليلهم لأوصاف الحكواتي للمقاتل الأسمر التاريخي، فيتخيل هنانو مشاركاً مع الثوار في معاركهم.

وإذا ما انتهى الحكواتي ليهم بالانصراف، هبّ عبد القادر واقفاً ليغادر أيضاً، فتنبه رفاقه إليه ليستدعى إلى طاولتهم مرحبين به. وابتدأ تساؤل الرفاق عن الغياب مرددين أسطوانة المرأة أو النساء التي حجبت عنهم رفيق العمر، فما كان منه إلاّ الغضب مفاجئاً الرفاق بصراخه:

"أتنسون بطولة عنترة العبسي وتعودون إلى أتفه الأمور. أسرار عاطفية وكلام فارغ".

وانطلق متسائلاً إن كانت سيرة عنترة تشبه ما يجري في البلد من بطولات، فما كان من وجوه أهل الطاولة إلاّ أن رسمت علامات التعجب وتبادل النظرات فيما بينهم وهم لا يعلقون بكلمة، وكأن الرفاق فوجئوا بسلوك صاحبهم الذي لم يشهدوا له مثيلاً من قبل. وأحسّ عبد القادر بخوف من انزلاق إلى حديث عن الثوار، فكان كأس الشاي الذي لم يمسه ليقف مغادراً تودعه أنظار الرفاق الذين ما عادوا يفهمون شيئاً.

-٨-

الفصول تتعاقب، واثنان منها لم يكن لعبد القادر فيها نصيب من الالتحاق بالثورة سوى مرة واحدة. كان حانقاً ويتساءل عن السبب، واذا ما قال للأستاذ ذات يوم يستفسره عن سبب إهماله، والحزن يعتصره، فجاءه جواب محيّر:

"الجماعة توفرك لأيام أخرى، ومن يدري قد تمتد الثورة إلى حلب نفسها. آنذاك سيكون لك دور فيها، بل أفضل الأدوار. رجل مثلك يا عبد القادر يمكن الوثوق به".

وفوجئ الشعب السوري بالنبأ الذي هزهم فلم يكونوا ليصدقوه. لكن الحقيقة كانت في القبض على الزعيم. من كان يتصور وقوع ابراهيم هنانو في الأسر؟، وهكذا قدم البطل إلى المحكمة العسكرية

الفرنسية فكانت مدينة حلب ساحة لها، وقد أتيح لأهلها ومنهم عبد القادر فرصة تكحيل أعينهم برؤية الزعيم ولو كان وراء القضبان. وقف قائد الثورة شامخاً وهو يردّ التهم عنه، بل إنه جعل يتهم الفرنسيين فلا يأبه لأحكام من احتلوا بلاده. كان أفضل المحامين يترافع عنه، فما كان من سبيل الاّ الإفراج عنه.

ولم تكن لعبد القادر فرصة في رؤية هنانو بعد انتصاره على أحكام القضاة ليخرج حراً، وبهذا حمل الحسرة على حرمان عينيه من رؤيته، والفرح بتحرره من قيود السجن. إلاّ أنه مع الحسرة والفرح بات ينتظر مقاومة الاحتلال من أهل حلب ، والتي اقتصرت على قيام التظاهرات التي أشعلها طلاب المدارس وأفراد من فئات المجتمع. كانت تنادي صارخة بخروج الاستعمار، فيتصدى لها الجنود بالرصاص والعصي، وكثيراً ما كانت البنادق تطلق في الهواء لتفرق الجموع لتعود إلى شوارع أخرى وهي تهتف بالغضب.

لم يشارك عبد القادر في أي من التظاهر مع الآخرين، محافظاً على الامساك عنه بانتظار اليوم الذي تشتعل الثورة في حلب ليكون واحداً من مقاتليها. ولهذا لم يغامر مرة بالكشف عن علاقته بمجاهدي جبل الزاوية، ومن طرف آخر لجم الرغبة في المشاركة بالتظاهر احتجاجاً على الاحتلال.

وذات يوم خرج كعادته من الدار ليقصد مقرّ عمله في الخان. ولأقل من ساعة في الانهماك باستلام البضائع، دخل الساحة صبي

من جيران البيت وهو يبحث عن عبد القادر. وجده فاستدعاه على عجل ليعود إلى الدار فأمه بحاجة إليه. يتابع الصبي راكضاً فإذا ما اقترب من الزقاق زادت خشيته من سوء في بيته. كادت قدماه لا تحملانه وهو يرى جارة تخرج مسرعة من غرفة أمه، فأحس بالخطر، لكنه تماسك وهو يجر خطواته. كانت الأم في فراشها تتلوى من ألم في الصدر، فإذا ما أمسك بذراعيها مشاهداً العرق الذي تصبب من وجهها، انفلت عائداً إلى الحوش طالباً من الصبي أن يستدعي الطبيب. وبعد زمن قضاه عبد القادر بين فراش أمه وباب الدار، قدم ممرض من المستوصف، لكن أمه كانت قد أسلمت الروح.

العجوز هادئة وهي قد توقفت عن معاناة الألم، والابن خاشع لا يعرف البكاء. وفجأة انفجرت الدموع في عينيه وهو يستحلفها بالله أن ترد عليه بكلمة. هزّها برفق وهو يناديها، فكانت شاخصة النظرات التي لا يُعرف لها معنى. يصرخ بائساً بنداء غُصّ به حلقه وبعد زمن لم يكن له حساب عنده، أمسك الممرض به يرفعه عن العجوز الراحلة، وهو يقول:

"البقاء للّه وحده، ولا حول ولا قوة الاّ بالله، كلنا لها يا أخ عبد القادر".

وأكمل بقوله إن إكرام الميت يكون في دفنه، فاندفع الابن إلى الحوش ليكمل نحيبه وهو يردد:

"أيمكن لأمك أن تغادر دارها وتترك حبيبها؟"

ولحق به الممرض وهو يقول:

"الناس تموت يا أخ. رسولنا الكريم مات، ومن قبله خلت الرسل".

آنذاك جعل عبد القادر يدور في الحوش، وهو يقول كطفل مستسلم".

"أسلمت أمري إلى الله، ولتكن جنة الخلد مثواك يا أمي".

تصدّر الحاج موكب المشيعين إلى المقبرة القريبة من الحي، وقد مشى رجال من الحي مع عمال الخان حاملين النعش، ليتبادلوا رفعه على الأكتاف. وكان صاحب الخان يمسك بذراع عبد القادر وهو يدبّ بعصاه فلا ينفك عن الترحم على الأم التي أنجبت رجلاً هو من أقرب الناس إلى قلبه. ومساء كان العزاء في الدار ينصت فيه الحضور إلى تلاوة من القرآن قرأه شيخان ضريران بالتناوب وقد استدعاهما الحاج لحلاوة صوتها، بينما دار بالقهوة المرّة على الخاشعين شاب من عمال الخان.

إذاً يعني أن تبقى وحيداً؟ وكان عبد القادر لا يتصور أن لا تكون أمه في الدار. وبالرغم من أن شقيقتيه مع الزوجين أقاموا ليلتين يواسونه في وحشته، إلاّ أنهم غادروا بعد ذلك ليواجه وحدته. وكان قد قضى ليله حتى الصباح جالساً تحت أغصان شجرة النارنج التي كانت أمه قد زرعتها في أيام زواجها الأولى، فمضت الساعات يستذكر طرائف أمه في الإلحاح على زواجه، ولا يلبث أن يبتسم في لحظات الحزن التي كانت تتناوبه.

وما هي أيام على وفاة أمه، حتى حضر الأستاذ في الصباح الباكر، والذي لم يدخل الدار إلاّ في ليلة العزاء. وفوجئ عبد القادر به دامع العينين وهو يختنق بالكلمات:

"الزعيم مات. مات إبراهيم هنانو يا صاحبي".

وقد عانى عبد القادر فهم ما قيل له، وطلب من الأستاذ الذي توقف عند المدخل ليعيد على مسامعه ما جاء به، فما كان من الرجل المفجوع إلاّ الاستناد إلى الحائط وهو يقول:

"ضاع منا. إبراهيم هنانو مات. أقول لك يا رجل انه مات".

وكأن الزمن توقف، فجمدت خلجات عبد القادر. جسد ساكن يبحث عن روح. وكان بلاط الحوش يميد تحت قدميه كرمال متحركة. وصرخ فجأة كوحش جريح:

"يا ضياع البلد برحيلك يا أحبّ الناس".

وكأنما عبد القادر الذي بات له فقيدان في أسبوع، أحسّ بأن عمره قد ضاع منه. وإذا ما مرت الدقائق عليه أدرك أن الحزن مزق صدره لغياب الزعيم.

خرجت حلب في جنازة إبراهيم هنانو. مشت الجماهير وراء النعش المحمول على عربة مدفع، فكانت تشق الطريق ببطء ولكن بالمهابة اللائقة، وإذا ما كانت تمر في الشوارع قابلها الناس المجتمعون على الأرصفة وشرفات المنازل بالولاويل المختلطة

بالزغاريد تطلقها نسوة محجبات وسافرات. النهار كان مجللاً بالسواد والشمس مكفهرة، وكأن وجوه الناس قد رشت برماد من الغيب. ومشى عبدالقادر منكس الرأس لا يستطيع أن يتخلص من غلالة الدمع التي حجبت عينيه عن الرؤية، فمشى على إيقاع أقدام الآخرين. وامتلأت المقبرة بالناس والتي لم يكن فيها سوى القبر المعدّ لهنانو، ليتعاقب سياسيون وزعماء أحزاب على كلماتهم لتفتت قلب المشيعين.

فُتحت بيوت وجوامع وعدد من الساحات لتقبل العزاء، وكثيراً ما كان عبد القادر يصادف أحداً اذا ما عزّاه بوفاة أمه، فانه يقول:

"وفاة إبراهيم هنانو تجبّ ما قبلها من وفيات".

وفي اليوم الثالث، أعدت المقاعد في الخان لاستقبال المعزّين. وما أن غادر الجميع حتى استدعاه الحاج إلى غرفته، وكان الليل قد ذهب مقترباً من منتصفه، فقال:

"عزيزان، أمك والزعيم، قد رحلا إلى دار البقاء، وبقي لك الحاج"

غمرته عاطفة صاحب الخان، الاّ انه توقف طويلاً عند توقف الحاج ليبدأ حديثاً آخر، قال:

"لا بد لك من زوجة يا عبد القادر. زوجة تأنس لها وتقوم على رعايتك، فالمرحومة رحلت، وهنانو غاب عن الساحة، والزمن لا يرحم. الزواج واجب إلهي ليعمر الكون. الزواج يا ولدي".

وكان عبد القادر في إصغائه للرجل الذي كان في مقام والده، يتذكر أمه في إصرارها على زواجه، فما عاد يكتم ابتسامة في داخله ما لبثت أن تسللت إلى وجهه.

وبدأ الحاج من جديد حديثاً عن ابنة أخت له قد ترملت بعد أشهر من زواجها، وقال:

"الرجال يلهثون في طلب الزواج منها لجمالها وثروتها. دار كبيرة وأراض زراعية في الريف تنتج القمح والخضار، ويأتي الزيتون منها بدخل كبير".

وكان الحاج يستمتع بذكر تلك المرأة، ومال على عبد القادر ليهمس عن بعد:

"ابنة أختي يا رجل بحاجة إلى زوج يحفظ مالها ويرعى شبابها. وأقول لك يا ولدي إن الخال العجوز لا يستطيع دوماً حمايتها".

وعاين الحاج أثر كلامه في عبد القادر، ومن ثم عاود الحديث بشيء من الرجاء الآمر:

"توكّل على الله ولا تتردد لحظة في اتخاذ القرار بالموافقة. الرجل للمرأة في وحشته، والمرأة للرجل تحبّه وتغنيه عن السؤال".

ببراءة تساءل عبد القادر عن مصير الزوجة إن مات في ساحة الجهاد، فما كان من الحاج إلاّ أن هتف قائلاً:

"أديت واجبك يا ولدي، وأكملت دورك على أحسن وجه. وأظن أن الأمور لا بد أن تتغير بعد الزعيم هنانو. الحال لن يبقى كما هو".

وخيم صمت تجاوب مع هدوء الليل، ولكنه قيد استجابة عبد القادر، وأقلق انتظار الحاج لجواب الموافقة. ويبدو أن شبكة السكون قد اخترقها الحائر وهو يقول:

"عشت سنوات طويلة من عمري تحت مظلتك، ولن تكون السنوات القادمة إلاّ معك وبرعايتك".

وقال عبد القادر أيضاً وهو منكس الرأس كجندي يقف أمام قائده:

"يشرفني أن اقبل بالفخر انتسابي إلى عائلتك".

فما كان من الحاج أن ضرب بعصاه أرض الغرفة الخشبية، وتمتم بصوت جلي:

"على بركة الله يا عبد القادر".

ولم ينتظر عقد القرآن فالزواج أربعين الوالدة، جرت المراسم في دار الزوجة مساء الخميس، وقد اجتمع حول الشيخ الخال والعريس وشاهدان من عمّال الخان، فقرأ الجمع الفاتحة، وشربوا عصير اللوز، وانطلقت من العلية زغاريد النسوة إيذاناً بدخول عبد القادر على عروسه التي لم يسبق له أن قابلها من قبل.

-٩-

أمام السرير النحاسي الذي انسدل قماش (الناموسية) على قضبانه الأربعة، وقفت العروس بثوبها الأبيض وخمارها الشفاف وقد لمع الألماس في أقراطها، وطوق عنقها عقد من اللؤلؤ. كان شمعدانان كبيران قد رسما الظلال على قوامها فبدت كجنية جاءت من أعماق الظلام لتنشر النور.

تقدم الزوج بخطوات محسوبة ليقف على مقربة منها، وهتف بصوت بحّته الدهشة:

"أم الخير. أنت حقاً أم الخير".

فسمعها تهمس بخجل عذب:

"ابي هو الذي اختار لي هذا الاسم".

ومشى ببطء كالمأخوذ ليقترب أكثر من عروسه. ولبثت هي جامدة كتمثال، ولكن وهج جسدها انبعث من مرمرها، وتقدم منها ليكشف الخمار عن وجهها، تأمله لتندّ عنه آهة تبعها بالهمس:

"يا سبحان الله، ما أجملك بين نساء الدنيا يا أم الخير".

وتحشرجت الحروف بين أسنانها لتشتعل وجنتاها بالاحمرار. تأملها كامرأة هبطت عليه من السماء وهو يقول ويردد:

"يا إلهي يا أم الخير.. أنت نعمة".

وأطرقت برأسها وهي تتمتم بكلمات مرتعشه:

"وأنت كما قال لي خالي الحاج".

قاد زوجته من يدها، فتقاسما الأريكة التي امتدت أمامها طاولة اصطفت عليها صحون الفاكهة والمكسرات وأطباق (الكنافة المبرومة) و(البلورية) و(الجوك ملبن). لم يمس أحد منهما (آلة العرس) فقد كان الزوجان منشغلين بالسباحة في عيون بعضهما البعض. وأخيراً امتدت كفه لينتشل لوزة قدمها إليها،

فانفرجت شفتاها لتلتقطها بأسنانها. وقامت هي بأخذ حبة فستق حلبي محمّص لتفصل القشرة منها، فقربتها من فمه. وكان أن احتفظ بها تحت لسانه وهو يقول:

"أريد أن احتفظ بها لمدة أطول".

فكان خجلها الذي بدأ يذوب بتسارع قد دفعها إلى الهمس:

"يستطيع ابن عمي أن أعوضه بأفضل منها".

فاقترب عبد القادر منها ليتغلب على خجله في ضم العروس إلى صدره، وقال مرتعشا:

"أعتقد أن الله سيجازي من أعدّ آلة العرس هذه".

أم الخير كانت تبتسم وهي تنزع القشرة عن موزة، قربتها من فمه فقضم قطعة منها، ومن بعد ذلك دفعها إلى فمها لتعضّ على شيء منها دون أن تقطعها.

ابتدأت الألفة تمد جسورها بين الزوجين. تماسكت الأكف وفيما يمرر كفه على شعرها قال:

'كانت أمي تناديني أحياناً بقولها (عبده)، وأنت الآن أقرب إليّ منها".

وجعل الزوجان يتبادلان تفاحة يقضم كل منهما شيئاً منها. كانا كطفلين مرحين، إلاّ أنهما دخلا بعد ذلك في رحلة المشاركة بصنع حياة واحدة.

في (صبحية) العرس التي لم يكن فيها غيرهما وما من غناء أو تخت شرقي كما كانت عادة الزواج، اجتمع العروسان في الصباح المتأخر حول مائدة في ليوان الحوش، فكانت صحون (المامونية مع القشطة) والجبن المغلي وخبز التنور، والتي أرسل بها الحاج ليكون أول إفطار يحيي به الزوجين. وفي ذلك الليوان الكبير الأشبه بمقصورة واسعة في الدار القديمة والتي أصبحت منذ ذلك اليوم بيت عبد القادر الحلبي الجديد.

قالت أم الخير وهي تقود زوجها في رحلة استطلاع لأقسام الدار من غرف و (مربعات) وأقبية:

"أليست الدار واسعة لتستقبل أولادنا".

فيهتف عبد القادر بدهشة وهو يمازحها:

"هل انت على استعداد لإنجاب دستة من الأطفال".

فأطرقت خجلاً أشار إلى دلال لتهمس في اذنه:

"هذا يتوقف عليك يا عبده".

فاندفع شبقاً يحتضنها بذراعيه لتمانع بدلع، واذا بباب الدار يطرق. كانا يسمعان دقات ملحة، فسارعا إلى مدخل الدار، لكن المرأة التي لم يكن قد رآها من قبل سبقت الاثنين لتكون عند الباب. سألها بعينيه عنها، فقالت أم الخير:

"الدادا وهي التي اعتنت بي منذ طفولتي، وستكون معنا".

القادم كان أم العروس وقريباتها، وقد حضرن للمباركة. زغاريد وقُبل، والتفت النسوة حول الأم التي احتضنت ابنتها، وانخرطن في الرقص على إيقاع تصفيق الأيدي وأخرجت إحدى النساء من تحت جلبابها الأسود مبخرة رشت عليها (الحرمل) فانتشر الدخان، لتدور المرأة بالمبخرة حول العروسين تحوطهما من عين الحسود، وداعية لهما بإنجاب الأولاد كبذور (البقلة). وقربت الأم عبد القادر منها لتصبح مع أم الخير كتلة واحدة وهي تنادي الحسد ان يبتعد عنهما، وتردد بأنها منحت للدنيا أجمل البنات.

وتحلق الجميع حول الحوض بنافورة الماء وسطه، وقد زنرته أصص الورود ونباتات الأوراق الخضر. قدمت لهم صحون (المهلبية) وحلوى (جوز الهند)، وكانت الدادا تدور عليهم وهي تطالب كل منهم بالصلاة على النبي، فيما مالت الأم على زوج ابنتها لتهمس في اذنه:

"ترك المرحوم لأم الخير هذه الدار الكبيرة، وإن كان القدر لم يسمح له بالإنجاب، فأنت يا عبد القادر أريدك أن تملأ الدار بالأولاد. الأبناء يطردون أشرار الجن".

وتمتمت كناصحة تمتلئ بالحكمة:

"لا تسمحوا للدار أن تكون لغير أولادكم فتملؤها بالضجيج".

ونادت على حاملة المبخرة فإذا هي الدادا التي تشرَّب وجهها بالتجاعيد. قالت الأم:

"دادا حلوم هي التي شهدت ولادة أم الخير، ستقوم بخدمتكم وتعتني بأولادكم".

فعبّرت الدادا بصمتها عن الطاعة، وابتسمت كأم استعادت أولادها بعد غياب.

مرّ يومان على الزوجين غارقين في بحيرة الحب. كان عبد القادر ينعم بسعادة لم يعرفها من قبل، ولكن العمل ناداه، فلم يملك سوى الاستجابة له. وفي اليوم الثالث خرج من إسار التواصل، ووافق بمرح على تسمية أم الخير له بالهارب من شهر العسل، فقال عبد القادر إن عليه أيضاً أن يردّ الجميل للحاج الذي أدخله جنة الزواج. ومضى إلى الخان.

استقبله الحاج بالأحضان، لكنه توقف متأملاً وضعه ليستنكره بالقول:

"وتعود يا رجل إلى شروالك القديم، كذلك تنتعل الصرماية نفسها. ألست يا ولدي في أيام فرحك لتعود إلى ماضيك!".

فما كان من عبد القادر إلاّ أن هتف بالقول:

"يحتاج الرزق إلى العمل يا خال".

وأكمل بالقول إن العمل في الخان منذ هذه اللحظة سيكون رداً للجميل الذي أغرقتني فيه، وان كان هو الأفضل ما حدث لي في حياتي.

وأصبح قريب الحاج بين العاملين له مكانته، وإن كانت قد سبقتها العلاقة الطيبة مع الجميع. وذات يوم استدعاه الحاج مساء، فأطال النظر إليه صامتاً يختزن الكلام. واذا قام من مقعده متثاقلاً جعل يقول:

"تعبت يا ولدي. الرومايتزم لا يرحم والشيخوخة ما عادت تسمح لي بجهد. ليس لي إلاّ أنت فقد حان الوقت لأستريح. أنت صهري فكن لي بديلاً، واذا احتجت شيئاً فأنا سأكون لك عوناً".

وعاد إلى مقعده يطلب جواباً من عبد القادر، فكان له جواب بعد صمت طويل:

"هل أستطيع ان أخالف لك أمراً يا حاج!".

-١٠-

اقتربت أم الخير في حملها من شهرها التاسع. كانت قد التقطت بذرة الجنين منذ أقل من شهر على الزواج، فكان عبد القادر فرحاً لا يصدّق أنه سيتحول إلى أب، فتمرّ عليه لحظات في اليوم يكلم نفسه فيها ويقول هل يمكن ان يحدث ذلك، واذا ما أطل من النافذة على ساحة الخان الهائلة كما كان يفعل أحياناً يراقب العمال، كان يشيد بنفسه على أنها الأسعد في العالم. زوجة جميلة ودار واسعة وطفل سيأتيه بعد فترة، وخال يملك الخان قد ترك له إدارته. يهتف بان الله قد منحه بلا حساب.

واستعداداً ليوم الولادة جعلت أم الخير تمشي بحملها صباح كل يوم لتدور في حوش الدار، وكان ذلك استجابة لنصيحة أمها. وفي الأيام الأخيرة تحولت إلى الدوران حول حوض الماء الثماني الأضلاع لأكثر من مرة، فتلحق بها دادا حلوم ترعاها بعينيها وهي تتابع خطواتها المتثاقلة بحرص أم، تغني لها مهدهدة بكلام غير مفهوم. واذا ما توقفت أم الخير لتستريح تقول الدادا:

"حملك ينبئ بطفل ذكر. طفل لا مثيل له".

وتعلق بأن (البكرية) يصبح وزنها اكبر مع الصبيان، فتهتف أم الخير متوسلة:

"من فمك لأبواب السماء".

وتقول وهي تعود إلى المشي البطيء ، إنّ عبده يستحق (خلفة) تليق به، أن يكون له ابن مثله ويحمل اسمه مكملاً مشوار رجولته. تتوقف أم الخير ذات مرة لتقول:

"دادا، أيمكن أن تحمل بطني توأماً؟".

"يكون الله قد أكرمك يا أم الخير".

تقول الدادا لتعاودا الدوران حول محيط الحوض.

بعد عصر ذلك اليوم الحاسم انطلق من الحارة صبي يركض. الخان مقصده ويريد أن يخبر عبد القادر أن الطلق قد اشتد بزوجته. هبط الخبر على الزوج، كان واقفاً فجلس. وفي ثوانٍ من زمنه دار

الخبر في رأسه ليعلم أن اللحظة قد أزفت، فخرج راكضاً من الخان وخطواته تسابق نفسها، فيما الصبي يلحق به كظلّه وهو يقول إنّ جارتنا أم الخير لم تتوقف عن الصراخ وأن (الداية) تساعدها، وكانت الدادا حلوم هي التي طلبت منه أن يستدعي الزوج. وما يزال عبد القادر يستمع إلى أقوال الصبي، لتجعل خطواته أكثر إقداماً على تجاوز قدرتها. خيل له أنه بات طيراً يسابق الهواء.

سمع الصراخ من مدخل الحارة. أم الخير تصرخ وكأنها تولول، فاقتحم باب الدار الذي وجده مفتوحاً، وتقدم في الحوش كضائع يعتصره الألم، وهو لا يقدر على تمالك نفسه. واذا ما بلغه آخر صيحات الزوجة توقف عند أول درجات المربع لتتصلّب ساقاه. مرت الثواني من زمن لا هوية له فوجف قلبه الحائر. إلاّ أن بكاء المولود القادم اخترق أذنيه ليخرجه من مجهول خاف أن يسقط في دوامته. بكاء رش روحه بعطر فدمعت عيناه، وحوّم في فضاء روحه التي استقبلت البكاء بما هو أقصى ما يسمى بالفرح.

وضع أذنه على خشب الباب مستطلعاً ما يجري في داخل المربع، فإذا ما خرجت امرأة تحمل لفافة بين يديها، وكانت (الداية)، فإذا بطفل قدمته لعبد القادر بقولها:

"مبروك لك. صبي ولدته أم الخير".

إلاّ أنها لم تترك له فرصة الاستمتاع بالصبي، لتعود من جديد إلى الداخل. دهش لرؤية القادم إلى الحياة وتمنى أن يحمله بين يديه، لكنه

لم يفهم لم حرم من تلك المتعة، فأقعى جالساً أمام الباب. بعد قليل خرجت الدادا لتقدّم له الصبي، فهب واقفاً لاستقبال ابنه، والدادا تقول:

"هذا ابنك يا زين الرجال".

تلقف عبد القادر الرضيع بذراعيه. هبة من السماء وضعها الله بين يديه، وجعل يردد سورة الرحمن، متأملاً وجهه وكأنه برعم الفل الذي طالما أعتنت أمه الراحلة به و بالنباتات التي تتفتح عن الأزهار لتقطفها، فتضعها بين ثيابها المحفوظة في صندوق عرسها القديم. وجعل الأب يرسل في اذن ابنه (الله أكبر.. الله أكبر) ليكمل الآذان، ولكنه ما أن انتهى حتى هتف قائلاً:

"اسميك يا ولدي بإبراهيم. انت منذ اليوم إبراهيم".

ونادى ليسمع الجميع باسم ابنه، فارتفعت في الفضاء زغاريد النسوة، وقال عبد القادر:

"مات إبراهيم هنانو، عاش إبراهيم الحلبي، والإبراهيمان سيبقيان".

كانت رقائق الدموع تغشي عينيه فلا يميز فيها الحزن على رحيل قائد الثورة من الفرح بقدوم الابن. الدادا تابعته وهو يميل على اذن ابنه يهتف فيها برفق تكبير الأذان، وسمعته يعطي الصغير اسمه، فامتدت يداها تسحب الطفل منه وهي تردد:

"برهو يا برهو، وحبينا ابراهيم".

وقفلت عائدة إلى الداخل لتضع الرضيع في أحضان أمه، فاستقبلتها أم الخير بالقول على ضعفها:

"لم أسمع في حياتي أحداً يرفع الأذان كما فعل أبو إبراهيم".

وتثني الدادا على قول الأم إنَّ صوته حنون مثله، "فلتكن لكما فاتحة لأيام تمتلئ داركم بالأولاد".

في الخان، أهل الحي يتقاطرون على تقديم التهاني لعبد القادر بقدوم إبراهيم، فإذا ما علم الكثير منهم بأن ابنه يحمل اسم الزعيم إبراهيم هنانو، رفعوا أيديهم بالدعاء لروحه، وللصغير أنْ يكون قدوة له ما سمي به. ولم تتح الفرصة للحاج أن يبارك لملازمته البيت مريضاً، الاّ أن عبد القادر هو الذي سعى إليه، وقال إن ولده حمل اسم ابراهيم، فتمنى الحاج أنْ يكون مستقبل الطفل امتداداً لبطولة الزعيم. وأن يحب بلده كما أحبها هنانو. وأضاف أن يكون صورة لأبيه في الإخلاص للعمل والأمانة. وما كان عبد القادر ليحلم بتهنئة أكثر منها.

ومازال الحاج يحدث زواره من أقارب وأصدقاء، مديحاً لعبد القادر، حتى وصل إلى أم الخير.

كانت تختلس النظر إلى زوجها، في صحوه ونومه، وهي تشكر الله على نعمة الاقتران برجل مثله، فالله قد عوض عليها زواجها الأول. إلاّ أن أفكاراً بدأت تدور في رأسها.

وذات ليلة، والأب يضمّ الابن إلى صدره مستلقيين على السرير النحاسي، فإذا بأم الخير تقترب منهما لتجلس وهي تداعب إبراهيم وتقول:

"أكرمنا الله بابننا، وزاد عليه أنك أُتمِنت على خان الحاج خالي".

فاستوى عبد القادر في جلسته وهو يتساءل عن العلاقة بين نعمة الابن وإدارة الخان لصالح الخال.

فما كان من أم الخير الاّ ان انطلقت بالحديث هادئة:

"ألم تكن أنت ناجحاً في إدارة الخان، وخالي الحاج فوّضك لتكون الآمر الناهي فيه".

ونظرت في عيني زوجها لتقول برقة:

"الخال مريض، شفاه الله، إلاّ أن أحداً من أصهاره لا يمكن أنْ يدير أعمال الخان".

ولبث عبد القادر ساكناً، إلاّ أنه تساءل بغتة:

"وما قصدك يا أم الخير من كل ذلك؟".

فأطرقت برأسها لتقول بعد لحظات:

"يمكن لك أن تشتري الخان منه. عندنا من الأموال والذهب ما يكفي. هل أنت جاهز".

وهتفت بصوت خفيض إنك من يحق لك أنْ تملك الخان".

أخفى الرجل غضبه، كابد المشاعر التي تغلي في داخله، ولكنه هب واقفاً يمسك نفسه وقال:

"الخان هو ملك الحاج، وسيبقى له. ما أنا إلاّ مكلف بإدارته".

وأقلت منه عتب واجه به زوجته:

"دعي ذهبك ومالك بعيداً عني يا أم الخير".

وعاد إلى هدوئه، فلم يسبق له أن واجه الزوجة بكلمة تمس مشاعرها. وجلس على طرف السرير ممسكاً بكف أم الخير يشد عليه، قال بهدوء:

"رعاني الحاج منذ شبابي الأول. أكرمني باختيارك لي. هو أكثر من أب، ولا يمكن لأحد أن يمتلك الخان غيره. خالنا الحاج، أعطاه الله العمر، سيد أصحاب الخانات في حلب وفي كل البلاد، ألاّ تعرفين ذلك يا أم إبراهيم".

لبثت أم الخير صامتة لا تجد لها مدخلاً إلى تعليق، وكانت تعقد في سرها مقارنة باخلاص زوجها للحاج ومحبته لها. وقد تحررت من صمتها بعد ذلك لتقول:

"عبده يأمر فيطاع. يا زين الرجال أعطيتنا حبا لي ولإبننا ابراهيم. وما كنت أحلم بغير ما أنت فيه".

-١١-

إبراهيم ينمو. الأشجار تثمر والنباتات تزهر. الطمأنينة تخيم على الدار، والاستسلام للرضا والسعادة شعارها. وفي صباح خرج من عتمة الفجر تنبه عبد القادر، بينما يقوم بالوضوء، إلى طَرقات على

باب الدار، فكأن الطارق يحمل معه الشؤم. فتح الباب فكان وجه القادم لا يرى بوضوح. سمعه عبد القادر يعلن بصوت واجف:

"استرد الله الأمانة. مات الحاج".

رحل الحاج، فهرع المفجوع إلى الخروج من الدار يقصد دار الفقيد، وقد نسي إعلام زوجته بالفاجعة. هو ينطلق مهرولاً في الطرقات . لم يستبدل ملابس النوم. كانت دار الحاج بعيدة فما أنْ يمر برجل من المارة حسبه يُلاحق أحداً ليمسك به.

كانت شيخوخة الحاج المنهكة مسجاة على فراشه، ومن حوله التف حولها عدد من المشايخ الذين فقدوا البصر، يرفعون عقيرتهم بقراءة القرآن كل يقرأ في سورة منه، ليتحول فضاء الغرفة إلى ما يشبه الأزيز. واقترب من الميت منحنياً عليه فطبع قبلة على الكف والجبين، وهو يهمس:

'كنت الأب، وأفضالك علي ستبقى العمر كله".

وتولى عبد القادر كل ما تعلق بأمور التشييع بما يليق بمكانة الحاج في الحي وبين تجار المدينة. وكان في المقبرة على رأس المتلقين للعزاء من أهالي الأحياء وتجار الجملة والمفرّق وموردي المحاصيل الزراعية من أرجاء مختلفة في الحقول والبساتين.

وفي اليوم الثالث أقيمت مأدبة كبرى في دار الحاج. وما أن فرغ الأقارب والمعارف والمشايخ من العشاء، حتى طلب أصهار الحاج

الانفراد بعبد القادر. اجتمعوا في غرفة الضيوف، وما أنْ شُكر للحلبي مسعاه في كل شيء. حتى أعلمه أزواج بنات المرحوم بأن الوقت قد حان لتقاسم زوجاتهم ملكية الخان فيما بينهم، فهو شرع الله. طلب عبد القادر أن يكون اجتماعهم في الخان غداً، فحضروا جميعاً، وقد فوجئ بان ممثلي الزوجات الثلاث اتفقوا فيما بينهم على بيع الخان.

كان الخان بغرفه ومستودعاته وساحته، قد ورثها الحاج عن أبيه، فما خطر على البال بان يباع تاريخ طويل، وتساءل عبد القادر في سره لو أن الحاج رزق بابن لما فعل ذلك، فهل خانته بناته.. قال واحد من الأصهار ممثلاً لاتفاق الآخرين:

"ألم تكن أنت الأقرب إلى المرحوم، لذا ستترتب الأمر مع زبون يشتري الخان".

وكان صمته أسفاً على مصير الخان ونهاية حزينة للحاج. وما أن خرج من التعليق على الطلب حتى قال:

"الله يختار ما فيه الخير، ولا حول ولا قوة الاّ بالله".

وكان المساء يخيم على الدار، فدخله بصمت والوجوم يحل عليه. وانتظرت أم الخير طويلاً قبل أن يحدثها زوجها عن ذلك الاجتماع مع أصهار المرحوم، إلاّ أنها جلست صامته بقوة إصغائها إلى كل كلمة وحرف ينطق بها عبد القادر. ولم تخف الزوجة ابتسامة

غامضة ارتسمت على شفتيها. واذا ما أخرج الزوج ما في حعبته من كلام، انطلقت تقول بتصميم:

"اشتر الخان من الورثة يا أبو ابراهيم".

وكأن الكلام قد أفلت من فم عبد القادر، فقال دون تفكير:

"ستصبحين مالكه للخان انت. هذا هو الحق يا أم ابراهيم".

فاعلنت عاتبة بقولها إن ما أملكه سيكون لك أيضاً. أنت تدير أعمال الخان بكل همة، فهو من عمل رجل البيت. وهتفت قائلة:

"لا فرق بيني وبينك، ولنتوكل على الله وتشتري الخان".

وأصبح عبد القادر مالكاً، فهل تحول الشاب الفقير إلى واحد من أهم رجال السوق في المدينة.واستمر في مشواره الذي تأسس على علاقات مميزة بالزبائن، كما كان الحال مع عمال الخان. ومازالت في تحسن دائم ثقة المنتجين للمحاصيل والسمن والزيت، فجعل الخان هو الأكبر في استقباله للبضائع وتوريدها إلى تجار المفرق. وبالرغم من أن عبد القادر لم يتجاوز الثلاثين من العمر بسنوات، فقد تحول إلى ما أطلق عليه بأنه شيخ التجار، يلجأ إليه أهل المهنة لحل الخلافات والاستشارة في عقد الصفقات.

ويوم ولدت له عائشة طار فرحاً، فقد أصبح لأم الخير ابنة، ستكون أختاً تساندها في سنوات العمر القادمة. كانت الدادا تهدهد (لعيشة) الرضيعة بين ذراعيها، بينما يمسك ابراهيم بذيل ثوبها

وكانت خطواته الأولى قد ابتدأت منذ أيام، فكان يلاحقها في تجوالها البطيء في أرجاء الحوش. ووقف الوالدان صباحاً عند النافذة بإعجاب أمام ذلك المشهد، ويفخران بما تحقق من حب بينهما وما وصلت إليه الحياة من نجاح.

ذات مرة، تساءلت أم الخير في معرض حديث عن سبب تسمية عبد القادر لابنتهم بعائشة مهملاً اسم أمه، فلبث هو صامتاً ترتسم علائم الحيرة على وجهه، بينما يهمس لنفسه:

"لو أنني فعلت لتساءل الجميع عن عدم تسمية الصغيرة باسم جدتها لأمها".

وقال بثقة اكتسبها لتوه:

"اخترت اسم عائشة لعلاقته برسولنا الكريم".

وهتف ضاحكاً بأنه كثيراً ما كان ينادي أمه بـــ (يامو)، فهل تتخيلين اسم ابنتنا يامو.

وتتساءل أم الخير بروح المرح:

"هل يمكن لإبراهيم أن ينسى اسم أمه مثلاً؟".

ليقول عبد القادر بشكل حاسم:

"انت أم الخير. اسمك لا ينسى، فأم الخير له علاقة بالعطاء لأسرتك ولكل الناس. أنت الخير يا أم إبراهيم، ولا يليق بك اسم إلاّ أم الخير".

وتوالت الأيام متعاقبة لا تتوقف انعكاساتها على أسرة الحلبي، إلاّ أن الأنباء جاءت بأخبار الحرب التي قامت في أرجاء واسعة من العالم. وكانت حلب لم تنس من قبل أيام الحرب العالمية الأولى من قبل بأهوالها وأزمة الفقر والجوع فيها، والتي لحق بها الاحتلال الفرنسي للبلاد. كان اسمها الحرب العالمية الثانية التي وقف فيها الألمان في وجه دول كثيرة منها فرنسا، فانتشر في أوساط شعبيه شعور التأييد للزعيم الألماني هتلر نكاية بالاحتلال، واعتقاداً منهم بأنه يدافع عن حقوق المسلمين، لذا فهو لن يتأخر عن طرد فرنسا.

وفي أيام الحرب، شهدت غرفة عبد القادر في الخان تحولّها أحياناً إلى ديوان يضم رجالات الأحياء يستمعون إلى إذاعة لندن العربية. وإذا ما أسدلت الستائر على النوافذ، مالت الأجساد للإصغاء إلى صوت (يونس البحري) من إذاعة تبث باللغة العربية من ألمانيا، وكان يدعو إلى تمجيد المعسكر الألماني بزعيمه هتلر الذي تحول عند عدد كبير من الناس إلى بطل أسطوري.

وتحولت شوارع المدينة إلى مظلمة تحرّم أعمدة النور فيها من الإضاءة في الليل، كما فرضت على مصابيح المنازل أنْ تدهن بالنيلة الزرقاء، فكانت الكآبة مخيمة على أهل حلب. وساد غلاء استشرى بين معظم الناس. لكن دار عبد القادر لم يلحق بها الضيق كما حدث للكثيرين، كما تغلبت الدار على مشكلة النور باستخدام شمعدانات نحاسية وجدت فيها فرصة لنظام الإضاءة الذي ساد قبل سنين كثيرة.

وتساءل عبد القادر، بعد أن مرت سنوات ثلاث على قدوم عائشة، عما يعيق أم الخير عن الحمل بولد ثالث، فالنعمة التي يعيش فيها سترحب بالكثير من الأولاد والدار واسعة. ولم تتقطع أم الخير في الشهور الأخيرة عن التفكير في أمر حملها. وأخيراً استعانت بالدادا، فكان أنْ دارت على الجيران والأقارب لتُدلّ على اللجوء إلى شيخ سره قاطع، وكان اسمه (ابو بريص). ذهبت الدادا بأم ابراهيم إلى بيته الذي كان في حي (الفردوس) بالقرب من مقبرة (الصالحين). قرأ الشيخ عليها من تمائمه وتعاويذه داعياً لها بالحمل بإذن الله وأن يزرع في بطنها ولداً جديداً. واذا انتهى الشيخ كتب حجاب الحمل الذي أمرها بوضعه تحت فراش السرير. ومرت الأسابيع دون نتيجة، فقامت الدادا باصطحاب أم الخير إلى الشيخة (أم الجدايل) التي تقيم في قرية قريبة من المدينة. قامت أم الجدايل بإحراق بخور جاوة بين فخذي الزوجة في الوقت الذي تلت فيه الأدعية التي لم تفهم المرأتان منها شيئاً، وحذرت من فضّ الحجاب الذي قدمته إلى أم الخير منذرة بالويل والثبور. قالت الشيخة إن أمامك أشهراً ثلاثة تلتقطين فيها بذرة زوجك. ولم تتحقق النبوءة.

وسيعلم عبد القادر بالمصادفة بتردد زوجه على مشايخ وأطباء شعبيين، فلم يتحدث معها في الأمر، بل لجأ إلى معلم المدرسة. استفسر من الأستاذ محمد عن جدوى الذهاب إلى أهل الأحجبة والتمائم. تأمله المعلم طويلاً، وكانا وحيدين في المدرسة، فقال الأستاذ:

"أذكّرك يا صديقي بأن الدعاء لن يخرج المستعمرين من بلادنا، رجال الثورة لم يعرفوا سوى البندقية يحاورون فيها الجنود. الأطباء هم الذين يعرفون أسرار الداء والدواء، وأما المشايخ فلا حول لهم ولا قوة. وأقول إنه لاحول ولا قوة إلاّ بالله لحكايتك هذه".

ووقف عبد القادر أمام قول المعلم متبصراً حكمته. وكان ان اصطحب زوجته إلى طبيب.

الشهور تمرّ، والفصول تتعاقب، وعيادات الأطباء تشهد دخول الزوجين وخروجهما منها. اكثر من طبيب فحص أم الخير فلم يجد فيها علة. وفي أيام الأفراح بإعلان الاستقلال ونيل البلاد حريتها، وكان الاحتفال الرسمي بعيد الجلاء توصل طبيب شاب قدم مجدداً إلى حلب متخرجاً من جامعة فرنسية،إلى الكشف عن مشكلة في رحم الزوجة، فتكررت التحاليل والأشعة عن ورم فيه، ما لبث أن تزايد نموه ليتحول إلى ورم خبيث اكتمل نموه أخيراً. ذُهل الزوجان، وفي أيام أسلمت أم الخير الروح. أغلقت الدموع نافذة الرؤية في عيني عبد القادر، ونسي أمر الراحلين من أمه إلى إبراهيم هنانو، فكانت ظلمة الفجيعة قد فوتت عليه أية فرصة في الصراخ.

-١٢-

يدخل الفتى إبراهيم الخان، يتقدم بخطوات واثقة حاملاً ريعانه في الإقدام على شباب مكتمل. يمر في الساحة متوجهاً إلى مقر والده

كعادته اليومية في عودته من المدرسة. يلقي التحية على العمال والزبائن ليقابل بالمودة والإعجاب منذ أيام الطفولة. وكثيراً ما كان الرجال يرددون علانية أو في السر بأن إبراهيم هو سر أبيه.

فوجئ الابن بالزوار يملأون الغرفة على غير العادة. يسلم على الحاضرين ويتخذ له كرسياً بالقرب من الباب، وكان والده يتابع حديثه معلقاً على الأوضاع السياسية في البلاد. وكان ذات يوم قد سمعه يعلن في الدار في الأيام الأخيرة لمرض أمه والدموع في عينيه:

"قسّموا فلسطين يا ويلنا، والمجرمون أعلنوا عن قيام دولة اسرائيل".

فلم يفهم إبراهيم الصبي ما سمعه من والده. إلاّ أنه في هذا اليوم أصغى إليه يقول:

"إذا كانت الانقلابات العسكرية تهدف إلى اعداد تحرير فلسطين فهذا حسن".

فما كان من واحد من الحضور إلاّ أن تخطى عبد القادر بالقول:

"مرت أسابيع على انقلاب الشيشكلي، ومن قبله الحناوي الذي سبقه انقلاب حسني الزعيم، فأقول يا سادة إن العسكر تردد شعارات تحرير فلسطين في الوقت الذي لم تفعل شيئاً".

وهتف الرجل هامساً برنة خائبة:

"ألم يشبع العسكر من القبض على دفة الحكم في البلاد؟".

وهبّ آخر بالوقوف على قدميه لينطلق بالقول:

"لن يسمح لنا استمرار النقاش في هذه الأمور باللحاق بصلاة المغرب، فالجامع الأموي بعيد".

انفضّ اللقاء، ومن جديد رحب عبد القادر بابنه الذي أعلن بالقول أن طلاب الثانوية انقسموا على أنفسهم، وما زالوا منقسمين منذ ساعة الانقلاب. الأكثرية تستنكر بينما القلة تؤيد. ألا تلاحظ أن البلد قد انقسمت أيضاً؟".

وقال إبراهيم وهو يتخذ له مقعداً أمام والده:

"بصراحة يا والدي فأنا مع الأكثرية.البلاد بحاجة إلى نظام مدني".

وتأمله عبد القادر، فإذا به يكتشف أن إبراهيم بات يمتلك قراراً لنفسه، وهو يفكر بطريقة يتجاوز فيها عمره. كان الأب يفكر فيما قاله الابن بأن البلاد بحاجة إلى نظام مدني. وامتد به التفكير ليتذكر أن إبراهيم كان يستعير الكتب، فأية منفعة في تلك الكتب في تكوين وعي الابن. وقال عبد القادر لنفسه وهو يتطلع إلى السنوات القادمة:

"قد يكون إبراهيم أكبر من أن يدير خاناً كهذا".

وبدا وجه إبراهيم. أشبه برجل صلب تدعمه الأفكار التي كان جازماً فيها. وجعل عبد القادر يطيل التأمل في ابنه، فكان ذلك إعجاباً بما وصل إليه.

في الخان وبعد أيام بدأ عبد القادر بالاستعداد لما سيقوله بعد تردد في مكاشفة أحد. قال:

"تعلم يا ولدي أن أمك الغالية بين نساء الكون. وستبقى أم ابراهيم حارسة لنا في غيابها".

واستمر صمته لدقائق، ولكنه ما لبث أن عاد إلى الكلام:

"الدادا تقومُ على رعايتنا، لكن ما سأقوله لك لن يغير من محبتي لأمك ولن يقلل من احترامي لها ولذكراها. فأنا أريد أن أعرف رأيك في إقدامي على الزواج".

صمت الأب، ولم تكن هناك أيه علائم على وجه إبراهيم الذي ظل هادئاً، ولم تنطق شفتاه بكلمة. كان الابن متمالكاً لأعصابه كرجل لا تهزه مفاجأة. وبعد حين قال عبد القادر:

"الحياة فيها الحلو وفيها المر، وأمك المرحومة لن تمانع بزواجي فقد كانت متزوجة برجل آخر، وقد رحل فكانت لي".

وأحدث قول إبراهيم هزّة في نفس عبد القادر:

"أنت رجل البيت، والقيادة لك. قرار الزواج يعود إليك وحدك".

ظل الأب يدرس قسمات الوجه عند إبراهيم، ويتفحص كلماته. تبنيّت له الحقيقة فكان الابن يعلن الحقيقة وهي الموافقة الصادقة. انزاح الهمّ عن صدره.

عائشة التي مهدت لها الدادا بخبر الزواج، سمحت محبتها لوالدها بالموافقة، وإن كانت قد ذرفت الدمع في فراشها. وفي عصر الخميس

قاد سيارته (الستروين) باتجاه بلدة عفرين شمال حلب. واذا ما زحف الغروب جعل الطريق يطوى المسافات أمام عبد القادر في اقترابه من هدف الزيارة، وهو الذي قاد السيارة للمرة الأولى خارج المدينة.

أطل وجه أم الخير عليه من وراء التلال، وطاف على أشجار الزيتون. جعل يردد لنفسه:

"أم ابراهيم ستبقى الحبيبة التي أكرمتني بأولادها ومالها، ولن تكون إلاّ الأولى في حياتي".

وابتدأت الجبال في مروره بوديانها تستدعي ذكريات جبل الزاوية. سمع فراغ السيارة همسه:

"ولو أني لم أكمل مشواري في ثورة هنانو، فإن البلد قد نال استقلاله اخيراً".

وصل إلى أطراف بلدة عفرين، وأمام دار الآغا أوقف السيارة. استقبل عبد القادر بحفاوة تليق بالرجل الذي سيصبح صهر عائلة الآغا، وهو من يملك الخان الذي يورِّد له الآغا وكبار المزارعين الزيت والزيتون لتتحقق للجميع أمانة وصدق صاحب الخان.

رجال العائلة وعدد من الوجهاء في المنطقة، قرؤوا الفاتحة بأصوات مرتفعه، أعقبتها آية من القرآن جوّدها شيخ المسجد. واذا ما انفضّ الجمع انفرد الآغا بعبد القادر يتقفان على مهر ابنته وموعد الزواج، ليوافق الخاطب على كل المطالب محتفظا لنفسه بأن يقتصر

حفل العرس على أقارب الطرفين في اجتماعهم في حديقة بيت الآغا الممتدة خلف داره. وقد لعبت مهابة عبد القادر دوراً في تردد الآغا من الإقرار بمبدأ هذا النوع من السرية التي اقترحه زوج المستقبل احتراماً لذكرى زوجته الأولى، فتمت الموافقة على الطلب شريطة ان يكون العرس لائقاً بمكانة الآغا في الجبل، وبأهمية (جليلة) بين النساء. وقد وافق عبد القادر على رغبة الآغا ما دام العرس سيكون بعيداً عن حلب.

وكان قد حدث قبل تلك الليلة، أن أرسل عبد القادر نسوة من طرفه لاصطحاب الصبية جليلة إلى حمام السوق في حلب. أجمعت النسوة على وصف العروس بالكمال الذي يليق برجل هو عبد القادر وقد وصفت جليلة على إنها خلقت له. وفي اليوم الحاسم شهدت حديقة الآغا التي تحول ليلها إلى نهار جمعاً غلب عليه أهل العروس وأقاربها وعدد من أغوات الجبل، وكان فيه قلة من جماعة العريس. الأشجار تشاركت بحملها لمصابيح الكهرباء الملونة لتحجب نجوم السماء الصافية. وتوزع الرجال على الكراسي المنتشرة وهم يدخنون النراجيل، بينما تصدرت الفرقة الموسيقية يقودها صوت المغني وهو يصدح بأغان كردية رقص على إيقاعها شباب وكهول. واستمر الراقصون مع الأغاني العربية يتمايلون. وانتشرت النسوة على الاسطحة يزغردن من حين لآخر. وكان عبد القادر مع الآغا في زاوية من الحديقة يلفهما وقار السادة، ويهزان برأسيهما في أوقات مختلفة دليلاً على الإعجاب بالفرقة والمغني.

وغاب الآغا ليعود بابنته جليلة التي أطلت بثوبها المبرقع يضيء بياضه بمشاركة وجهها الذي غطته ألوان تشع بكحل العينين واحمرار الخدين وشفاه توهج منها لون الكرز. وهبّ الجميع يقفون إعجاباً واحتراماً، فكان الأب يسلم الأمانة للرجل الذي بات فعلياً صهر العائلة.

استمر حفل الحديقة بعد غياب العروسين. وكانت جليلة بخمارها الشفاف تتقدم عبد القادر الذي أسرع إلى فتح سيارته، فأصبحت منذ تلك اللحظة أول خلوة لهما. وتحركت بهما السيارة يرافقها عدد من الشاحنات الصغيرة والتراكتورات، وما أن وصل الموكب أول البلدة حتى ترك للعروسين انطلاقهما وحيدين في الطريق إلى حلب.

دام الصمت فترة من الزمن. جليلة التي رفعت الخمار عن وجهها دفعت بعبد القادر إلى اختلاس النظر من طرف عينيه فيقول لنفسه إن جمالها يفوق الوصف. ويتابع مراقباً الطريق المظلم، فكانت الأشجار كالاشباح المغلقة على نفسها، بينما جليلة كانت مضيئة. قال الزوج متجاوزاً الصمت:

"ستحبين الدار. هي واسعة وترحب بك".

بعد قليل، وفي ظهور أنوار المصانع التي تبشر بالاقتراب من المدينة:

"ستلقين الترحيب من ولديّ إبراهيم وعيشة".

لم يعرف الحي سيارة يملكها أحد غير عبد القادر. وفي ليلة العرس قدمت السيارة إلى الساحة في وقت متأخر. وتقدم عبد القادر مع عروسه ليدخلا الزقاق. فتح باب الدار ففوجئ بالدادا صاحية وهي تجلس على حافة الحوض، والدار بأنوارها قد استعدت لاستقبال العروسين. هبت المرأة واقفة ترحب بالقادمين وتقول:

"خفت أن تطلبا خدمة مني فانتظرت".

وقال عبد القادر مقدماً الدادا لعروسه:

"الدادا حلوم هي كالأم للأولاد، وهي من يرعانا".

وكانت الدادا بخبرة عمرها الطويلة تتأمل العروس في محاولة لمقارنة بينها وبين أم الخير، لتنتهي بنظرتها الثاقبة إلى أنها وجدتها كعروس للرجل الذي تعامل معها كواحدة من أسرته. وأخفت في سرها ابتهالاً تدعو الله فيه أن تكون هذه المرأة كأم إبراهيم التي كانت كابنه لها. وهي أكثر من صادقة.

كانت الغرفة الأخرى قد أعدت للعروسين، بعد ان أعطيت غرفة أم الخير لعائشة والدادا. وقد دخلها العريسان ليقول عبد القادر في أول خطوة انت الآن في بيتك واهلاً بك. فما كان من جليلة الاّ أن أجابت بسعادة خجوله:

"الدار واسعة والغرفة جميلة. بستان اهلي خارج الدار، وأما بستانكم فداخله".

واقترب عبد القادر من عروسه ليمسك بذراعها يقودها إلى الأريكة، فيجلسان وهو يقول:

"بستاننا هو حديقتك يا جليلة. ومنذ هذه اللحظة أريدك أن تعرفي أن حياتنا قد ابتدأت منذ اليوم في هذه الدار، وأنا من يحميك ويحبّك"

فأطرقت برأسها وهي تسمع كلمة الحب لتشعل النار في جسدها، وتدعذغ سمعها، وهي التي لم تسمع بالكلمة إلاّ في الأغاني. كانت تحلم بها منذ أن كانت في عمر الفتوة وعيون الشباب تلاحقها، إلاّ أن عبد القادر امتلكها.

أمسك بكفها يلامسها برقة، فوجدت نفسها تطبق عليها بكفها. وكان الصبح قد اقترب فقال الزوج لها أن تذهب إلى الفراش لتسري في أوصالها الرعشة. كانت جليلة في ريعان أنوثتها، وكان عبد القادرلم يعرف امرأة منذ مرض زوجته الأولى، فتقارب الاثنان ليلتصقا في كتلة واحدة يضمهما سرير الشوق. وكان عبد القادر قد نسي ضوء الكهرباء ليكشف لقاء الشريكين، الاّ أن أشعة الشمس التي أطلت على النائمين باستغراق عميق، كانت أقوى من نور الكهرباء، ومع كلّ تلك الإضاءة فإنها لم تدفع العروسين إلى الاستيقاظ.

انتصف النهار وكان يوم جمعة، فخرج الزوجان إلى الحوش يستقبلان رحلة جديده. وكان إبراهيم وعائشة يلاحقان ديكاً هرب من قفصه، فاستجابا لنداء والدهما ليتقدما منه جالساً مع الزوجة. وقفا باستعداد ليقدما الاحترام اللائق، فما كان من جليلة إلاّ أن همت على

عائشة تحتضنها، وإذا ما حاولت مع ابراهيم مدّ ذراعه يصافحها وهو يقول:

"مرحباً بك يا خالتي".

انتشر الأربعة على المقاعد التي ظللتها أوراق شجرة الليمون. الجميع يبتسم، ولكن النظرات الفاحصة بأشكال متباينة أرسلها الواحد تجاه آخر. عبد القادر يدرس انطباع ولديه عن الزوجة القادمة إلى الدار، وجليلة ترى في ابني زوجها الودّ والوداعة. وكان ابراهيم يحاول ان يستطلع موقف هذه الزوجة من الابنين وأبيهما، أما عائشة فقد حملت نوعاً من العاطفة تجاه خالتها لتجد شيئاً من أمها التي كانت الخير الذي حمله اسمها. وهتف عبد القادر فجأة متسائلاً عن طعام الغداء.

واجتمع الأربعة حول المائدة في ركن ظللته دالية العنب، بينما الدادا تدور من حولهم، فطلب رأس العائلة منها أن تأخذ لها مكاناً بينهم، فكانت هي المرة الأولى التي يدعو الدادا إلى مشاركتهم بالطعام. وقال:

"أليس هو يوم الترحيب بجليلة تجتمع فيه العائلة!" .

وتساءلت عائشة وقد بدت أكبر سناً من عمرها:

"هل سأناديك بخالتي، أم أنك تريدين الاحتفاظ باسمك جليلة؟".

فسارعت جليلة وهي تغمر الفتاة بحنان غامر:

"أنا مثل أمك يا حبيبتي، وأتمنى أن تكوني لي أكثر من أخت وأكثر من صديقة".

أمّا إبراهيم فجعل يتمتم بصوت يراد أن يسمع:

'كانت أمنا تحبّنا، وقد أحببناها. نتمنى ان نعيد الزمن إلى ما كان عليه".

فإذا بعبد القادر يهتف قائلاً في توقفه عن الطعام:

"خالتكم جليلة ستحبكم أيضاً. ولن يكون في الدار سوى الحب. كل من في عائلتي سيحب كلٌّ مِنّا الآخر".

وتمر الأيام. جليلة وعائشة تشتركان في الصداقة التي ولدت منذ الأيام الأولى، ويستمر ابراهيم في لجوئه إلى غرفته يقرأ في كتبه ويتابع دراسته. وكان عبد القادر يمضي نهاره في الخان، ليعود مساء إلى داره تسبقبله زوجه بزينتها. وجدت جليلة ما كانت تحلم به، وقد غمرها الزوج بحنان المحبّة بما فاق مشاعر الأب. وذات يوم اكتشفت جليلة وهي تدخل إلى المطبخ الكبير إنكباب الدادا على إعداد الطعام، فإذا هي تبكى بصمت أمام طبق الفخار بينما تعمل على تنقيه العدس. فوجئت الدادا بدخولها، فسارعت بمسح الدموع التي اكتشفتها جليلة، فبادرت إلى السؤال إن كانت تشكو من ألم، فإجابتها بأن البصل هو السبب، إلاّ أن البصل لم يكن بين يديها، فعادت إلى التساؤل إن كان أحد قد تسبب في مضايقتها، آنذاك ترددت الدادا بالإجابة قبل أن تقول:

"كلكم أحبائي، وأنتم أهلي. ابو إبراهيم والأولاد، وأنت ياست جليلة أيضاً".

وأكملت الدادا حلوم، والدموع مازالت تلمع في عينيها:

"اعذريني فأم الخير كانت لي كابنة. ربيتها صغيرة ورعيتها في زواجها. رافقت مرضها وشهدت رحيلها، لذا أنا أبكيها كلما تذكرتها وأنا وحيدة".

واقتربت جليلة منها لتحتضنها، وتهمس في اذنها:

"اعتبريني مثل ابنتك، فأنت البركة التي ترعانا. ألا يمكن أن أصبح أيضاً مثل المرحومة!" .

وكانت حرارة العناق قد تغلغلت في وجود الدادا، فسالت دموعها على خديها. شهقت وهي تقول:

"ما أطيب قلبك ياست جليلة".

وسيعلم لاحقاً من الدادا بما جرى في ذلك اليوم، فيدرك عبد القادر أنه أحسن اختيار الزوجة ليزداد الإعجاب والمحبّة لها. وكان ما يحدث من علاقة الصداقة بين عائشة وجليلة أثرها على ربط الزوجة الراحلة بالجديدة، فاستبشر بالمستقبل ليكون كما كان ماضيه.

ودفعت به أحوال استقرار الأسرة فتستمر الطمأنينة فيها، إلى ما كان يدور في ذهنه من الأمر الذي خطط له سابقاً. فقام عبد القادر بتحويل واحد من مستودعات الخان إلى معمل يعدّ أعلاف

الحيوانات، فازداد عدد عماله، كما أنه استقبل عدداً أكبر من الزبائن يقبلون على إنتاجه. إلاّ أن ما حدث في توسع الأعمال أن بات رجال أمن من جهات مختلفة يزورون الخان في مراقبة دورية لأحواله. وكان عبد القادر يسخر في سره من تلك الرقابة التي شاركه فيها أصدقاء مقربون له. وكانوا في جلسات الغرفة يتهامسون حول حكم الشيشكلي بالقمع السائد، وكذلك للتلفيق الذي وسمت به الانتخابات التي حاول نظام الديكتاتور إلصاق الديمقراطية بها.

لم تقف أوضاع البلاد الأمنية في وجه تقدم المشروع، فمعمل الأعلاف بدأ يحقق إرباحاً تعادل أو تزيد عن تسويق المحاصيل والزيوت. واذا ما اقترب موعد ولادة جليلة هتف الحلبي في سره:

"فتحت أبواب الرزق طريقها أمام الأبناء، والفضل لأم الخير ولجليلة وجه الخير".

الدادا حلوم هي أول من استلم مولود جليلة، أخذته من الداية لتحمله بين ذراعيها. وبعد حين انتقل الرضيع إلى عائشة التي ضمته إلى صدرها. واذا ما وصل الخبر إلى عبد القادر خرج من الخان مسرعاً، فإذا ما علم بأن القادم صبي هتف علانية أهلاً بإسماعيل ليكون اسم القادم الجديد.

وسأل إبراهيم في جلسة ضمت جميع أفراد العائلة" لم إسماعيل"، فكان رد الوالد عليه:

"ألاّ تعلم يا ولدي أن اسماعيل هو ابن إبراهيم عليه السلام".

لكن الشاب الذي تجاوز عتبه الفتوة منذ زمن، هتف متعجباً:

"ولكن إسماعيل هو أخي".

"وغمر عبد القادر بنظرات الحب ابنه ابراهيم، وتمنى لو أنه ضمه إلى صدره، لكنه قال:

"ولكنك من سيرعاه يا ولدي. هو ابني، ولكنك ستمثلني في أبوة إسماعيل".

فانقبض قلب ابراهيم، الاّ أنه تجاوز همه ليقول:

"أدامك الله فأنت الأب وأنت لنا دوماً".

فكانت جليلة تزداد سعادة وهي تشكر الله أنه وضعها في اسرة عبد القادر الحلبي.

-١٤-

كثيراً ما كان عبد القادر يحمل السعادة في أعماقه وهو يجول في أرجاء الخان، من الساحة إلى المستودعات إلى معمل العلف. يحيي العاملين ويشدّ على أيدي البعض منهم. واذا ما عاد إلى مقره في الغرفة، افتتح يومه بالاستماع إلى الراديو بينما يعمل في تدقيق الفواتير والدفاتر وفي صباح يوم صيفي توقفت مروحته القش عن

الحركة أمام وجهه لخبر نقله الراديو إلى سمعه. ضباط مصريون قاموا بالاستيلاء على الحكم. وتوسعت أذننا عبد القادر في متابعته لتلك الاحداث. وكان أول القادمين إلى الغرفة يحمل نبأ التظاهرة التي سارت في وسط المدينة تأييداً لثورة يوليو.

بات همّ له في يومه، فكان يتابع أحياناً أحوال الثورة المصرية، وتحولت جلسات الغرفة إلى أحاديث عن مصر. وأصبح عبد القادر الحلبي مديراً لتلك اللقاءات يؤيد ويحلل، ويعتبر أن عبد الناصر هو القائد الحقيقي للثورة. وقال في سره ذات مرة إن معرفته الأولية التي كان قد حصل عليها منذ سنين طويلة لم تقدم له شيئاً، بينما الإذاعة والجرائد ومجريات الأمور في البلاد فتحت النوافذ على المعرفة. كان يدفع زواره إلى معاملته كصاحب مركز لمعلومات سياسية واقتصادية، بل واجتماعية.

وكثيراً ما تحدث في تلك الرحلة عن تشريد أهل فلسطين وزرع الدولة اليهودية الجديدة في أرضهم، فاختلط حديثه بذكريات جبل الزاوية معرجاً على تاريخ المجاهدين الذين قصدوا فلسطين لمحاربة العصابات الصهيونية قبل فرض الدول العظمى إسرائيلَ. وهو إذا تجاهل عن قصد نكر الانقلابات العسكرية في سورية، أكد على التبشير بنصر العرب في تطلعهم إلى الوحدة التي ستحرر فلسطين من عدوان إسرائيل، بل إنها ستقتلع الكيان الصهيوني من جذوره.

ويبدو أن زوار الحلبي من أصدقاء وزبائن، قد دفعه التفافهم حوله وإصغاؤهم إليه باتجاه الكتب يقرأ فيها سياسة وأدباً، وكان إذا لم

يشتريها فانه يستعيرها من ابنه ابراهيم، أو ان الأستاذ يمده بها إهداء أو إعارة، وكان المعلم قد استقال من المدرسة ليعمل موظفا في شركة خاصة، بينما ظل مقيماً في الحي، وقد رأى عبد القادر أنه من العار أن يعمل الأستاذ عنده، مع أنه تمنى ذلك.

وسيتابع أخبار مصر التي تحولت عنده إلى عادة يومية، منذ القضاء على الملكية إلى ظهور حقيقة جمال عبد الناصر كزعيم عربي أجمع معظم الناس في الداخل والخارج على حبّه. بقي المذياع من آثار الحاج الباقية بصندوقه الخشبي الكبير، إلاّ أن آذان عبد القادر وإبراهيم والأستاذ ظلّت خلال أيام ملتصقة بالراديو بانتظار ما أشيع عن إعلان نتائج البكالوريا. وفي ذلك المساء يلتصق سمعهم بذلك الصندوق يتطلعون إلى سماع اسم ابراهيم بين الناجحين، بينما الابن كان واثقاً من ذلك. طلاب دمشق ومن بعدهم حلب، فكانت الأسماء تتوالى بإيقاع رتيب. واذا ما تناهى إليهم اعلان اسم ابراهيم عبد القادر الحلبي توقف الزمن. التهبت المشاعر بصراخ صمّ الآذان عن متابعة النتيجة، وهبّ الأب إلى احتضان ابنه كما لم يحدث منذ سنوات الطفولة. وصل التهليل إلى العاملين بالخان فتوافدوا مباركين، اضطر عبد القادر للإفراج عن إبراهيم من العناق، وشُغل بتلقي التهاني من الجميع. وفوجئ العمال بإعلان الحلبي عن مكافأة ستوزع عليهم إكراماً للنجاح ولعيون الحبيب إبراهيم.

في طريق العودة إلى الدار عقب الإعلان عن النتائج، تشابكت الأيدي، وكان عبد القادر يتساءل عن مستقبل إبراهيم والكلية التي

ينوي الالتحاق بها. الناجح صامت والوالد يقترح عليه ان ينتسب إلى كلية الطب ليكون أول طبيب من أهل الحي، كما أنه لم يسبق لأحد أن يحصل على البكالوريا، فما كان إبراهيم إلاّ أن خرج عن صمته ليقول إنه ولو حصل على العلامات اللازمة لدخول هذه الكلية فإنه اتخذ قراراً لن يحيد عنه. قال إبراهيم:

"أريد أن أكون في سلك الشرطة. سأكون ضابطاً في الشرطة".

صدمة المفاجأة أوقفت خطوات عبد القادر. نظر إلى إبراهيم الذي توقف احتراماً. الدهشة منعته من أن يستوعب كلمات الابن محاولاً أن يصل إلى فهم لها. قال في محاولة للتقرب:

"ما بال الطب يا ولدي. تذهب إلى جامعة دمشق، تدرس في كلية الطب، وتعود إلينا طبيباً".

وكان إبراهيم الذي أطرق برأسه إلى الأرض بتصميم وهو يقول:

"وما بال الشرطة يا والدي. أليست الشرطة في خدمة الناس؟".

مشى الاثنان من جديد. في طريقه ابتدأ عبد القادر يرسم صورة الضابط في مخليته، فأعجبه المشهد. وعاد إلى التوقف ليخاطب إبراهيم:

"كنت منذ فترة أتخيل أنك ستدير الخان من بعدي، ولكن أحلامي رسمت لك مهنة يتطلع إليها الناس باعجاب. لم يسبق لأحد من عائلة الحلبي أن حصل على غير الشهادة الابتدائية، فتفوقت أنت علينا. أنت تستحق أكثر من ضابط شرطة".

فما كان من إبراهيم إلاّ أن همّ بالمشي ليخلف والده وراءه:

"تكون الشرطة أقل أهمية من المهن الأخرى!" .

دخل إلى الدار، وقد فوجئ الاثنان بالزغاريد تلعلع في فضاء الحوش. اجتمعت النسوة من حولها يباركن النجاح الذي أعلنه الراديو. عائشة عانقت إبراهيم وجليلة وجدت فرصة لتقبيله من خده، وبكت دادا فرحاً. قال عبد القادر والجميع يلتف حول إبراهيم في الليوان:

"تصوروا أن ابننا يريد أن يكون ضابط شرطة".

وعقدت الدهشة الألسنة. لكن الدادا تحررت منها لتهتف بأن إبراهيم سيكون زهرة الشرطة، ولحقت بها جليلة فتقول إن والده تمنى أن يكون طبيباً، ولكن عائشة اعلنت عن رغبتها في أن يتلقى إبراهيم العلم في جامعة أوربية، فما كان من عبد القادر إلاّ أن صرخ بخوف:

"وهل تريدين يا عيشه أن يضيع أخوك في بلاد الغربة؟".

آنذاك حسم إبراهيم الموقف وهو ممسك ببرتقالة تتبادلها كفاه:

"قلت إني سأكون في سلك الشرطة".

الأيام القادمة حملت ابراهيم إلى كلية الشرطة. كانت لياقته الجسدية وردوده في امتحان القبول كتابة ومقابلة شفهية قد جعلته من الأوائل. وقد توقف رئيس لجنة المتقدمين عند اجابة إبراهيم عن سؤاله ما الذي دفعه ليصبح رجل شرطة:

"أردت لمجتمعنا أن ينعم بالأمن، فأنا يا سيدي لم تكن لي من أمنية سوى توفير الطمأنينة للناس، وأن أبعد عنهم كل من يسيء. الشرطة دون شك تلعب الدور الأكبر في تحقيق العدالة".

وظهر من حكم اللجنة التي دارت على المدن لاختيار المتقدمين من حملة البكالوريا، أن ابراهيم الحلبي قد نال المركز الأول ليصبح كابتن الدورة التي ستمتد لسنتين.

ومن طرف آخر، شهد سفر إبراهيم إلى مدينة أخرى حيث مكان الكلية، لقاء مؤثراً من الأهل، فأخفى الجميع عنه دموع العيون، كما حبس هو عنهم البكاء، وقال في لحظات الوداع مخاطباً والده:

"كنت دوماً الأب الأمثل والرجل الذي ابتدأ حياته بحب الوطن والتضحية من أجله".

وفوجئ عبد القادر الذي أخفى عن أسرته أخبار اشتراكه في ثورة هنانو، فلم يخطر بباله أن تتسرب إلى واحد من العائلة. قال إبراهيم:

"عدد كبير من أهل الحي تناقل أخبار ماضيك في ثورة جبل الزاوية. أنا فخور بك يا والدي".

ضم الحلبي، وهو يتذكر ان اسمه كان أبو حلب، ليصبح ابنه ملتصقاً بصدره. كادت الدموع تفلت منه ولكنه تماسك. وكان خروج إبراهيم من الدار منطلقاً إلى المستقبل الذي اختاره.

سألت جليلة زوجها بعد يوم من غياب المسافر.

"لم تصطحب إبراهيم إلى محطة القطار".

وأطرق عبد القادر برأسه متمتماً بصوت مسموع:

"رافقه إلى المحطة رجال من الخان، وخشيت أن أضعف أمامهم لحظة الوداع".

أمسكت جليلة بكفيه لتضمّهما إلى وجهها، وهمست في اذن زوجها:

"لن تمضي السنتان حتى يعود إبراهيم إلينا ضابطاً نفخر به".

اختنق صوت عبد القادر وهو ينطق بقوله:

"حملته بين ذراعي. كنت أتصور دوماً أن إبراهيم سيظل طفلي الجميل. اليوم ابتعد، وبالرغم من أنه سيعود الاّ أنني أحسست برجولته، ولن يلبث أن يذهب من جديد".

احتضنت زوجها كما كانت دوماً تضم رضيعها اسماعيل إلى صدرها تهدهده. استمر الحنان لدقائق، ولكن الرضيع بكى فجأة فهبت مسرعة إلى سريره وهي تبتعد عن عبد القادر.

كان الهاتف قد أُدخل إلى الخان، فالأعمال التجارية اقتضت ذلك، إلاّ أن عبد القادر أدخله إلى الدار قبل سفر إبراهيم تحسباً لاتصال منه. وهذا ما حدث فقد كان اول رنين للهاتف قد وصل من الابن الغائب، والذي لم ينقطع عن الحديث مع الأهل أسبوعياً، كما كان حضوره إلى الدار قد تكرر في السنة لمرات قليلة.

الدهشة التي تحولت إلى صدمة، هي ما أصاب عبد القادر الحلبي. وللحكاية تاريخ سابق لحصول تلك الصدمة، فقد جاء إلى الخان ذات يوم من أيام نمو وتطور زراعة القطن، رجل من الزبائن وطلب قرضاً فاستجاب له عبد القادر.. فقد تحول جزء من الخان إلى تخزين القطن الذي ورّده الرجل. والحكاية لم تكن لها علاقة بذلك، بل ان الرجل الستيني جاء منذ أيام ليتقدم بطلب جديد، وهو يقول:

"فقدت أم الأولاد زوجتي المرحومة، ولكن الشرع يأمرني بالتعويض عنها. رزقني الله أراضي وبيوتاً ومالاً، وأكرمني لأصبح من كبار المزارعين المتطورين، ولا ينقصني سوى زوجة من أصل كريم. وأنت يا شيخ التجار ذلك الأصل ، فأنت من أتشرف بالقرب منك".

واستمر إصغاء عبد القادر، أو عجبه، بينما الرجل يكمل القول:

"أبنتكم هي التي أتشرف بالتماس موافقتكم على زواجي منها".

فلم يستطع الحلبي أن يمسك نفسه عن الغضب، إلاّ أنه فعل، وقال كاظماً غيظه:

"عيشة! ولكن ابنتي عائشة مازالت صبية صغيرة تتابع علومها في المدرسة".

وقال مزارع القطن بلهجة الواثق:

"ابنتكم المصونة عائشة، صبية بالغة وحان وقت زواجها. اسم الله عليها فقد كانت المرحومة زوجتي السابقة أصغر منها في العمر".

ابتدأ عبد القادر بكلامه على الطريقة الإملائية، وهو يحاول أن يرسم ابتسامة ماكرة على وجهه:

"يا سيدي ومولاي، أقول ان ابنتي مازالت تلميذة، وتريد أن تكمل تعليمها الجامعي".

فقاطعه الرجل مستنكراً طريقته في الحديث:

"المال جاهز، والمهر كما تريد ليكون لك تسمية المقدم والمؤخر".

وتدخل رنين الهاتف لإنقاذ الحلبي من الغضب الذي كاد أن ينفجر عنده. ظل يتحدث طويلاً، وإذا ما شعر الرجل بأن إهانة قد ألحقت به خرج غاضباً كثور هائج. وكانت تلك الحكاية سبباً في عدم دخول شلٍ من القطن لمزارع مهما كان.

-١٥-

أيام تمر وشهور تتوالى، وبينما الزمن يمضي لتكون اللحظة حاسمة. عاد إبراهيم بالنجمة على كتفه، فاستُقبِل في الحي الفخور بابنه والأول بين أهله كضابط تشخص إليه الأبصار فكان حدثاً لم يشهد تاريخ الحي مثله. وكان الوقت عصراً لحظة دخوله فسحة الخان ومن خلفه رجال من أهل الحي ويحيطون به، يهللون ويكبرون احتفاء بالضابط إبراهيم، وكأنه زعيم أو عائد من الحج. وسمع عبد القادر من غرفته ما وصله من هرج ليطل على الجموع. وعند الباب

تسمرت قدماه، فالمشهد كان مؤثراً. إبراهيم ضابط الشرطة يحمله الرجال وكأنهم يريدون تقديمه إلى والده.

الاثنان غرقا في عناق وقف الجميع له احتراماً لحرارته. عبد القادر يعاين بدلة الضابط ليعود من جديد إلى احتضانه. وأعلن صاحب الخان عن شكره للاحتفاء بابنه العائد بالفخر الذي انعكس على الحي، وأمسك بذراعه ليشقا الجموع وهما يعودان إلى الدار.

دهشت عائشة لرؤية أخيها بزيّه الأنيق ونجمتين على كتفيه والشريط يتدلى على ذراعه، لتقول أن الصبايا سيفقدن توازنهنّ لرؤية الضابط، كما دهش ابراهيم لاكتشاف خالته جليلة في أيامها الأخيرة من الحمل. وهمّ على أخيه اسماعيل الصغير يحمله بين ذراعيه، فكان يطوف به و يسميه بالعفريت الجميل. وبحث فجأة عن الدادا حلوم، و حين وجدها تقدّم منها، فرحبت به كأم، واحتضنها مراعياً شيخوختها التي ابتدأت تدب في جسدها. ولم يتوقف أفراد الأسرة عن تأمل رجولة ابراهيم التي اكتملت، لتظل العيون متعلقة به.

أيام قليلة ما كادت تمرّ، حتى ولدت لجليلة ابنة. هتفت عائشة من فرح أن أختاً لها أصبحت حقيقة كان قدومها مع الفجر، فما أن حملها عبد القادر بين ذراعيه حتى شكر الله وليطلق عليها اسم (صفيه) تقدم من زوجه بالامتنان لمنح عائشة أختاً لها، وللأسرة فرداً جديداً، ليكون لعائلة الحلبي امتداد سيتوسع مع مرور الزمن ليملأ الدار.

كانت أيام حكم أديب الشيشكلي قد ولّت. وحصلت عائشة على شهادة البكالوريا، لتكون من أوائل بنات الحي اللواتي وصلن إلى هذا المستوى من التعليم. كانت خطتها في دخول الجامعة بعكس أترابها اللواتي أردن الالتحاق ببيت الزوجية. قبلت عائشة في كلية الطب، فتشكل عند والدها همّ في سفرها إلى دمشق، فكانت تقول:

"أردت لابراهيم ان يكون طبيباً، وها أنا من سيحقق لك أمنيتك".

رافق عائشة إلى دمشق، وإذا ما اطمأن إلى مبيتها في دير للراهبات، عاد عبد القادر إلى حلب. ولم يكن هناك من أسبوع لا تتصل به عائشة تخبره عن تفاصيل حياتها في الجامعة أو الدير، واذا ما تجاوز اتصالها الأسبوع، قام بطلبها فتتعلل بانشغالها في الدراسة. وهكذا مضت الأيام.

وفوجئ عبد القادر في ذلك اليوم بمجيء ابن له لم يكمل شهره السابع، فاقترحت الدادا ان يسمى (السبيعي)، إلاّ أن عبد القادر استمهل تسجيله في قيد النفوس، باحثاً عن اسم للطفل. واهتدى إلى اطلاق اسم الزعيم الذي أغرم به لقدرته على تحدي الصعوبات من مؤامرات حيكت ضده، فسجل الابن دون تردد ليصبح (جمال).

كان إبراهيم منذ أكثر من سنة، قد عُيّن قائمقاماً في ناحية من ريف حلب، واشتهر في أوساط وزارة الداخلية بالحزم مما أدى إلى وقف اقتتال فريقين من العشائر، بل جمعهما على وفاق لتزول الأحقاد، فكانت المائدة تضم الأفراد المتخاصمين على أرض

وميراث. كانت إدارته لتلك الناحية مضرب مثل عند الحكومة، فثارت غيرة عدد من القائمقامين من ذلك الضابط ابراهيم، بل انها امتدت لتشمل بعضاً من المحافظين. وبالرغم من محاولات الغيرة المثارة ضد الشاب المميّز، فقد منح أكثر من ثناء على جهده، فكانت له الفرصة في لقاء وزير الداخلية لأكثر من مرة.

وقد وجد إبراهيم في السكن وحيداً فرصة، لينتسب إلى كلية الحقوق التي لم تكن بحاجة إلى متابعة الحضور فيها. وبالرغم من انها في دمشق فقد أحضر مناهجها ليشغل وقته خارج العمل الحكومي. كان يتردد على دار أهله في حلب مرتين في الشهر، يلاعب إخوته الصغار. وعن عائشة قال مرة لوالده:

"أعلم واثقاً بتميزك عن بقية الرجال. أنت أفسحت المجال لطموح عيشة في ان تدرس لتكون طبيبة وفي دمشق، فهذا أمر يفوق التصور. لذا فأنا أحمل لك كل الاحترام على انفتاحك".

كانت عائشة قد ابتدأت دراسة الطب بعد سنتها الأولى من تلقيها لمرحلة (ب.س.ب)، وقد شاركتها الغرفة في دير الراهبات (بدور) طالبة في كلية العلوم قدمت من الساحل، نكية مرحة، فكانت منذ الأيام الأولى تسأل عائشة ان كان لها حبيب يقيم في دمشق أو تراسله في حلب، فردت بالإيجاب، فوالدها هو الحبيب الأول وأخوها ابراهيم الثاني، والصغيران إسماعيل وجمال هما أحبُّ الأولاد. وكانت بدور تصغي، وفي اللحظة التي توقفت عائشة عن الكلام، ابتدأت هي:

"أسألك إن كان لك حبيب تتقابلان أو تتراسلان. رجل يا زميلتي تضمينه إلى صدرك، يحبك ويداعب شعرك، يهمس في اذنك بالشعر أو التغزل بمفاتن جسدك".

عائشة تسمع الاّ أنها لم تستطع أن تقدر أبعاد الحديث، أو ما يمكن أن ينشأ من علاقة بين رجل وامرأة. ولكن ناراً كادت أن تُحدِث حريقاً مبهماً في جسدها، فتمالكت مشاعرها في قولها:

"هذا يكفي يا بدور. أقول لك إنّ احداً لا يمكن لي حبه إلا أبي وأخوتي".

وأفلتت بدور بالضحك. قالت بعد قليل وهي تطل على الشارع من نافذة الغرفة:

"رجال. نساء. عجائز وشباب. أيمكن لأحد ألاّ يحب!".

وقالت مستلقية على الفراش تحدق في السقف:

"مسكينة المرأة تعيش في هذا العصر من غير حبيب".

وكانت عائشة تجلس إلى مكتبها تقرأ في كتاب جامعي، فلم تعر اي اهتمام لقول الشريكة. ويبدو أنّ بدور قد يئست في أيامها المقبلة من الحديث مع الفتاة القادمة من قلب حلب القديمة.

وما جرى لإبراهيم فاجأه. انتقل من وظيفة القائمقام إلى مخفر في حلب، وذلك بناء على دسيسة من زعيم عشيرة عند الوزير الجديد، فلم تشفع له إدارته ولا فضّ النزاعات بين عشيرتين. وحدث احتفال

للعائد إلى داره وهو يحمل نجمة أخرى على كتفه، ولكن عمله في المخفر بات تابعاً لرئيس غيره. إذن فقد عاد الابن إلى أحضان الأهل، وما كان ينقص الدار سوى عائشة.

وولدت لعبد القادر بنت سرعان ما أطلق عليها اسم (زينب)، وكان قدومها إلى الحياة، يسبق بأيام اعلان الوحدة بين سورية ومصر. مجيء زينب غطت عليه أفراح المدينة. الأحياء خرجت برجالها ونسائها وأطفالها في مسيرات تهتف للوحدة. وكان عبد الناصر النجم الغائب عن التظاهرات والاحتفالات، ولم يتخلف عبد القادر الحلبي عنها فقد فتح الخان أمام المهنئين من العمال والوافدين من الأحياء المجاورة. واستمرت الأفراح في الساحة الكبرى للخان على إيقاع الطبول والمزامير.

واذا ما ألحت الجماهير المحتشدة على عبد القادر ان يلقي خطاباً، وقف قائلاً:

"مات ابراهيم هنانو. أصبح لنا من بعده جمال عبد الناصر. أهنئكم فالوطن بخير".

وسكت عن الكلام، واما الجميع فكان بانتظار متابعة خطابه. إلاّ أن الخطيب نزل من على كرسيه الذي اعتلاه، فاهتزت الأكف بالتصفيق. قال أحدهم ان الكلام من ذهب، وهتف واحد من عمال الخان ان هنانو وعبد الناصر من أبطال ثورة العرب. واقترب مختار الحارة من عبد القادر ليشد على يده، يخاطبه بصوت سمعه الآخرون:

"خير الكلام ما قل ودل. كنت يا شيخ التجار سيد من وصف لنا التاريخ والحاضر".

فوجئ إبراهيم بالقرار. كان وراء مكتبه في المخفر وهو يتسلم كتاب انتقاله إلى جهاز أمني. وفي لقاء مع قائد الشرطة قيل له أن أكفأ الضباط هم من يختطف من قوى الأمن. واذا عَلِمَ عبد القادر بذلك، أدرك ان ابنه قد دخل مرحلة مهمة من حياته، إلاّ أنه ستواجهه المتاعب. وقال متمنياً ان ينتهي من دراسة الحقوق ليسلك طريق الإدارة المدينة فهي الأسلم له. وأدار الحديث في منحى آخر ليسأل ابنه:

"متى سنفرح بك. الزواج سنة يا إبراهيم".

واذا ما أجاب ابراهيم بان ما هو مكتوب علينا سيكون، فارتسمت ابتسامة على وجه عبد القادر متذكراً أمه في إلحاحها على زواجه، إلاّ أنه لم يشر إلى ذكرها . وعجز إبراهيم من فهم ابتسامة والده فلم يسأل عن سرها.

-١٦-

الترقية جاءت في وقت مبكر فأصبح إبراهيم نقيباً مع تسلمه لملف أعداء الوحدة، وكعادته في الالتزام تحول منذ أيامه الأولى في الأمن إلى إدارة ذلك الملف بحزم وجدية. بث المخبرين في المقاهي

والدوائر الرسمية والمدارس. أحكم العيون في الشوارع ودور السينما وملعب كرة القدم كان مجرد الاشتباه في كلام يسيء إلى عبد الناصر في المقام الأول، أو إلى نظام الوحدة، يتسبب في اعتقال وفق خطورة التهمة. ويُزجّ بمرتكبها في أقبية لا تعرف الشمس.

ويوم أعلن عن انتخاب مجالس المدن، برز تنظيم (الاتحاد القومي) بقرار من حكومة الوحدة المركزية ليكون وحيداً بعد إلغاء الأحزاب بشكل كامل. وقد ورد تقرير إلى مكتب ابراهيم يشير إلى عدد من الممتنعين عن الانتساب إلى ذلك التنظيم. وجاء على رأس القائمة اسم عبد القادر الحلبي. ويفاجأ الابن بابيه، والذي عرف عنه إعجابه بعبد الناصر والوحدة بين البلدين.

وقد سبق أن زارت لجنة من أعضاء الاتحاد القومي عبد القادر في الخان، تدعوه للتقدم إلى الانتخابات بعد تسجيله منتسباً إلى التنظيم، ولعلمها بأنه يتمتع بمحبة الناس في أحياء حلب القديمة، وباحتلاله مكانةً مرموقة بين التجار وعند أهل الأسواق. ودهشت اللجنة لاعتذار عبد القادر الذي أعلن عن عدم أهليته ليكون ممثلاً لأهل حلب، وهو يقول:

"صحيح أنني أتابع الأخبار واقرأ الصحف والمجلات، وأنا من الذين هللوا للوحدة مع مصر، إلاّ أنني لا أملك الوقت للعمل السياسي، فلدي ما يشغلني من إدارة الأعمال في الخان. وأرجو اعتباري عضواً في الاتحاد، أما الانتخابات فلست اهلاً لها".

وبالرغم من محاولة أخرى في إقناع عبد القادر الحلبي. إلاّ أنه ظل ممسكاً بحجته، فما كان من عضو في اللجنة إلاّ أن تقدم بتقرير نسب فيه إلى الحلبي العداء للوحدة ولعبد الناصر. وكما هو الحال فقد انتهى التقرير إلى يد ابراهيم الذي لبث جامداً وراء مكتبه، وكانت عيناه لاتفارقان كتاب الاتهام. كان يعلم يقينا بأن والده لم يكن لحظة ضد الوحدة، بل هو أشد المتحمسين لها ولرئاسة عبد الناصر المتطلع إلى بناء الوحدة العربية انطلاقاً من وحدة البلدين.

واستمر البحث والتقصي عن كاتب التقرير والاسباب التي دفعته إلى توجيه التهمة لوالده. اكتشف أن عضو الاتحاد لم يقتصر على توجيه التهمة إلى عبد القادر الحلبي، بل إنه قصد الطعن أيضاً في شخص رجل الأمن إبراهيم. نجاح الأب في أعماله وتفوق الابن في وظيفته، هما السبب في حقد كاتب التقرير.

لم يذكر شيئاً عن ذلك التقرير. أخفاه ابراهيم عن والده، إلاّ أنه كلف عدداً من رجاله ملاحقة أخبار الرجل الذي كان موظفاً صغيراً في مديرية التموين وبقدرة قادر أصبح مقرراً في واحدة من لجان الاتحاد والقومي. ونبشت ملفات الرجل لتثبت أنه ارتكب ما يكفي من مخالفات وأخطاء استدعت التحقيق بها، إلاّ أن اختياره في الاتحاد أوقف كل تحقيق. وكان إبراهيم قد ابتدأ أولى خطواته في باب الانتقام لوالده ولنفسه، فيقول في سره:

"من ضربك على خدك فاضربه حتى يقع أرضاً. الرحمة لا يستحقها الظالمون".

وبات إبراهيم أكثر تدقيقاً في تقارير المخبرين، فهو يحاول ان يتبين صدقها من كذبها ، وسيتبين له أن نسبة منها تدل على الكيد أو الموقف العدائي، أو لتصفية الحسابات الشخصية.

وتساءل إبراهيم أمام رئيس فرع الأمن التابع له:

"لا يعقل يا سيدي أن ترتفع نسبة الاتهامات الكاذبة بحق الناس. المخبرون فيهم من يلفق ويكذب، والمتطوعون من فئات مختلفة، محامون وقضاة وأساتذة مدارس وغيرهم، البعض منهم يريد إلصاق التّهم بآخرين".

فما كان من الرئيس إلاّ الانتفاض غضباً، ليقاطعه بقوله:

"أتريد أن يلعب أعداء الوحدة بذيلهم دون أن نقتصّ منهم. اسمع أيها الضابط إبراهيم إن تهاونك ليس من سياسة الحكم، وأريدك أن تكون أكثر حزماً مع الخصوم".

خرج من مكتب الرئيس حاملاً اليأس الذي أدخله إلى قلبه حديثه. واستقر في مكتبه محاولاً أن يستعيد كل أيامه في الأمن، وفي لحظة اتخذ قراره في العودة إلى الشرطة، إلاّ أنه ما لبث أن طرح على نفسه للسؤال: وكيف يكون الخلاص؟.

لم تمض أيام حتى تلقى إبراهيم قرار سحب ملف أعداء الوحدة منه، وكلف بمتابعة شؤون اللاجئين الفلسطينيين في مخيم (النيرب) الذي كان أهم تجمع لهم. كان المخيم يضم أوائل الفلسطينيين في قرية

تلتصق بحدود المدينة، وقد تحول إلى بلدة صغيرة ينتمي سكانها إلى فرق خرجت منها أحزاب مختلفة. وعمل معظم اللاجئين في حلب يعودون مساء إلى المخيم، بينما آخرون كانوا يديرون ويخدمون في الدكاكين والمقاهي، وكذلك مدرسة الامم المتحدة (الأونروا).

وقرر ابراهيم أن يقوم بزيارة للمخيم، بعد أن قدمت له المعلومات التي تصف أحواله من أوضاع اجتماعية واقتصادية وفكرية. كان بلباسه المدني كعادته، وقد تخفى في شخصية صحفي يحمل الكاميرا، مدعياً انه يكتب سلسلة مقالات عن أوضاع المخيم. قابل الناس في الأزقة وداخل البيوت، وما يمكن تسميته بالمقاهي الشعبية القليلة والمنتشرة على أرصفة ضيقة احتلت كراسيها قلة من رجال عجائز.

فجأة خرجت جنازة من شارع ضيق، وقد حمل النعش أربعة من الرجال يلحق بهم عدد قليل من المشيعين، وقد غلبت عليهم نسوة صامتات. تابع إبراهيم الموكب الصغير يقوده شيخ يردد في خطواته بالتكبير يلحقه بطلب قراءة الفاتحة. واذا ما وصل المشيعون إلى أرض انتشرت فيها القبور متناثرة، توقفوا عند صخرة أعدت للقادم الجديد. ولم يكن إبراهيم قد حضر أية جنازة سوى يوم وداع أمه، فكأن الذكريات قد استيقظت بداخله. وكأن انزال الميت في القبر لم يشغله عن مراقبة المرأة الشابة الواقفة عن بعد، فخيل إليه أن الدموع قد جمدت في عيونها أو أنها لم تكن أصلاً، الاّ أنها وقفت ذاهلة عن كل ما يجري من حولها، فلم تكن لتعير اهتماماً بنحيب النسوة وعويلهن، واذا ابتدأ الشيخ توقفن، ليعمل هو على تلاوة سورة البقرة.

المرأة التي اتشحت بالسواد وشمس نيسان قد احتضنتها لتبدو كصبية لا يشبهها أحد بوجهها وقوامها. ودار في سر إبراهيم سؤال ان كانت ابنة للرجل الراحل أم أخته. وظلت الحيرة عنده وقد عاد من المقبرة ليتخذ له مقعداً في المقهى، فاستمع إلى كهلين يتحدثان فالتقط سمعه أحدهما يقول:

"العجوز المسكين، رحمه الله، لم يهنأ بزواجه من صبية في عمر بناته".

ويقول الآخر وهو يعتدل في جلوسه:

"المرحوم لم يمهله الحظ لينعم بجمال زوجته فرحل بعد زواجه بأشهر قليلة".

علم إبراهيم أن حديث الرجلين يدور حول تلك الجنازة. وكان واحد من الرجلين قد رمقه بنظرة فاحصة متوجهاً منه بسؤال:

"هل الأخ من المخيم؟ أعتقد أنه من حلب. أهل المخيم لم تتشرف بالمعرفة".

أجاب إبراهيم، وكأنه يرغب بسماع أكثر عن علاقة تلك المرأة بالمتوفى:

"محسوبكم صحافي، والمرحوم لا يستحق سوى الرحمة وقراءة الفاتحة على روحه".

فقال الرجل مرحباً:

"أهلاً بالصحافة، ولكن المرحوم يستحق الإشفاق قبل الفاتحة".

وعلق الآخر بالقول، كمن حمل تأثراً في نفسه:

"أيعقل أيها الأخ أن يستغل العجوز فقر الصبية فيستأثر بها. البنت كانت أجمل النساء".

ويكمل بغضب وهو يضرب الطاولة بقبضته:

"حصل بماله على أجمل نسوة المخيم. المسكينة وقعت بين أيدي الرجل غير المناسب".

أضاف الآخر مشاركاً غضب جليسه:

"باعتها أمها الحيزبون بأبخس الاثمان. وعلى كل حال لا يجوز على الميت غير الرحمة".

-١٧-

كانت خطة إبراهيم في العودة إلى المخيم هدفها الأول المرأة الأرملة التي كان اسمها (ليلى). ومهد لها في إرسال رجاله لاستجلاء أحوال الفلسطينيين، ووجد في أحدهم من أقنع الأم بدفع ابنتها ليلى إلى العمل في إدارة حصر التبغ والتنباك، وكان مديرها على صلة بالأمن. اقتنعت ليلى من أمها فأهملت فترة (العدة) التي تبقيها في عزلة لشهور بعد وفاة الزوج، وهرعت إلى قبول الوظيفة التي ستضمن لها دخلاً، وذلك لمعاناتها من أهل زوجها الذين حرموها من أي صداق أو ميراث، خوفاً من شراستهم.

وابتدأت ليلى عملها في مقسم هاتف المصنع. كانت قد حصلت على شهادة الكفاءة، بينما العاملات في قسم اعداد السجائر كن من الأميات، وقلة منهن أتقنت القراءة والكتابة. منذ الأيام الأولى حصلت ليلى على وسيلة للانتقال من المخيم إلى المصنع وبالعكس، وكان باص الادارة يقلّها بالرغم من أقامتها البعيدة، ولكن المدير أمر بذلك استجابة لطلب إبراهيم ، ظناً منه أن الفتاة على صلة بالأمن، وهكذا توفرت لها الحماية فلم يقترب أحد منها في سؤال أو مضايقة. وساد بين العمال الذين معظمهم من النساء، احترام تخوفاً من غضب الذي يرعاها.

عائشة كانت في زيارة لأهلها في حلب، جمعها مع إبراهيم لقاء. الأَخوان الصديقان تبادلا الأخبار، فاذا بإبراهيم يكشف لها سره الذي لم يعلنه لأحد:

"وقع أخوك ابراهيم في الحب".

"هذا من حقك يا إبراهيم ".

وأضافت عائشة بقولها:

"أتحفظ السر. زميل لي في كلية الطب أظنني بتّ أميل إليه".

واستيقظ رجل الأمن في داخل إبراهيم. لبث فترة يتأملها ثم هتف بالقول:

"ما مدى ميلك لزميلك هذا؟ أهو يليق بك؟".

كان إبراهيم يحمل احتراماً كبيراً لأخته. توقف عن سلوك المحقق ليسألها برقة:

"أعلم يا عائشة أنك في خطواتك الأخيرة لتكوني طبيبة، ولا أشك في اختيارك".

ووجدت عائشة فسحة لها في قول أخيها، فجعلت تقول:

"أحسست بميله لي. هو شاب خجول ولكنه من أفضل الطلاب. مثقف ورقيق، وهو من عائلة طبية من حلب".

ومالت عائشة على اذن ابراهيم تهمس فيها:

"وسائلك كرجل في الأمن تسمح لك بالاستفسار عنه وعن عائلته".

اثار إعجابه بالأخت التي يراها تقدم على اختيار زوج بعقل راجح، بينما هو وقع في الحب دون مكابح لمشاعره. وكان أن سألت عائشة فجأة:

"ما حكاية حبك. لا بد أنها فتاة تليق بك!" .

حملت اجابته تردداً، لكنه ما لبث ان قال:

"ستعرفين يا أختي في الوقت المناسب".

واستطاع إبراهيم أن يجمع في تحريه عن (طالب)، الذي تحدثت عائشة عنه، قدراً كافياً من المعلومات هو الابن الوحيد لطبيب جرّاح عرف في المدينة بمهارته وميوله اليسارية، إلاّ أن الابن لم ينتسب إلى الحزب الشيوعي كأبيه الذي لم يقترب أحد منه للمهابة التي

حظي بها. كان الشاب منذ أيام المدرسة وحتى فترة الجامعة نموذجاً للاخلاق والثقافة، ونال تقدير رفاقه منذ صباه. وفي حديثه الهاتفي مع عائشة أثنى إبراهيم على زميلها، فكان أن قالت بأن طالب يودّ زيارة أهلها فاستمهلته لمعرفة ما جرى في الاستقصاء عنه. قال ابراهيم ان الشاب زميلها سيكون مرحباً به، ولكن علينا موافقة الوالد.

وعن إبراهيم وليلى. قرر هو أن يتقدم منها بخطوة فعالة. ليلى التي كانت قد لمحته من غرفة سنترال الهاتف وهو يقوم بزيارة لمدير المؤسسة لأكثر من مرة، وتساءلت في سرها عن ذلك الزائر الذي أضمرت له إعجاباً بداخلها دفعها إلى التفكير، إلاّ أنها لم تجرؤ مرة على الاستفسار من أحد عنه.

وفي ذلك اليوم ومع خطوة إبراهيم الفعالة منها، وكانت ليلى تستعد لركوب باص الشركة للعودة إلى المخيم، فإذا بسائق سيارة إبراهيم يطلب منها مقابلة رئيسه النقيب. فوجئت ليلى بان الرجل الذي كان يزور المدير هو الذي دعاها إلى اصطحابها إلى منزلها في المخيم، فتغلبت على ترددها لتمضي معه. قدم إبراهيم نفسه على أنه ضابط مسؤول عن أمن مخيم النيرب، واذا اطمأنت ليلى إليه قالت لنفسها إن كانت هناك مشكلة ما لها علاقة بها. وفي الطريق خرج إبراهيم عن صمته ليقول:

"اطمئني يا سيدة ليلى فالسائق سيعيدك إلى منزلك بدلاً من باص الشركة".

استمرت ليلى بجانب ابراهيم في سكوتها بينما تراقب الطريق. كانت نبرة صوت محدثها قد ساهمت في تهدئتها. واذا ما اقتربت السيارة من مدخل المخيم، قالت:

"أنت تعرف اسمي، إلاّ أنني لا اعرف شيئاً عنك".

"اسمي ابراهيم الحلبي، ولست هنا بصفتي ضابط أمن".

أجاب ابراهيم بينما أطالت ليلى النظر إليه، وتتساءل ولم أنا؟. قال لها:

"أنا في طريقي إلى المخيم، وأنت ذاهبة إليه".

عاد الصمت إلى نصب شباكه في صندوق السيارة. الرجل والمرأة يراقبان الطريق وهو يطوى بطرفيه العاريين إلاّ من أشجار قليلة وبيوت متفرقة. من جديد كان همس ابراهيم يصل سمع ليلى:

"رأيتك لأول مرة يوم الدفن".

استنفرت أحاسيس ليلى. وعاد إبراهيم إلى القول:

"كنت ذاهلة بلا دموع. زوجك الراحل يوارى التراب وكنت بعيدة عن المشيعين".

خرجت اللحظات القديمة على ليلى تثير غضباً، لكنها تمالكت نفسها لتقول:

"كانت نهاية مرحلة مغتصبة من حياتي، وها هي تنتهي".

وتحكمت في مشاعرها لتقول وكأنها تتحدث عن امرأة غيرها:

"زواج من عجوز وهي الصغيرة من طرف، وفقر عاشته الصبية من طرف آخر. وهكذا سقطت المرأة في فخ زواج ظالم، لتشكر الله أنه لم يدم الاّ لشهور قليلة".

هتفت بعد قليل مطرقة برأسها:

"لم أكد أبلغ الثامنة عشر من عمري، حتى وقعت بين براثن ذاك الرجل".

وتجاوز السائق حماراً شارداً يقطع الطريق، في الوقت الذي قالت ساخرة:

"أراد الزوج دهس حياتي، فنجوت".

كانت السيارة قد وصلت إلى مدخل الشارع المؤدي إلى بيت ليلى، فطلبت هي من السائق أن يتوقف لينزلها وهي تقول:

"شكراً لك يا سيدي".

"اسمي إبراهيم يا ليلى، وأنا اشكر لك شرف مرافقتي".

وقالت ليلى مودعة:

"تمنيت لودعوتك إلى بيتنا، ولكني أخشى أقاويل أهل المخيم، فأنت ضابط أمن".

تمتم ابراهيم باني أقدر موقفك. وما لبث أن أشار إلى السائق ان يمضي في طريقه. وفيما السيارة تمر على الأرض الخلاء، كانت الكلمات تدور في أجواء روحه:

"امرأة رائعة. لم أقابل مثلها في حياتي. هل وقعت في شباكها؟".

يوم آخر لتستيقظ المدينة على أصوات الراديو في كل مكان، وهي تلعلع بأنباء الانفصال. سورية في خندق ومصر في آخر، وهكذا كان الانفصال الذي دوى انفجاره في معظم أرجاء البلاد. صرخ عبد القادر الحلبي في حوش الدار، ودار كالتائه في إرجائه:

"ضاع الحلم العربي، الويل لنا".

خرج إبراهيم من غرفته مذعوراً، وكان الصراخ هو الذي استدعاه. شاهد والده للمرة الأولى باكياً وهو يندب:

"ضربوا الوحدة. هدموا البناء الذي كنا نحلم به".

وكان جهاز الراديو الموجود في الليوان يعيد من جديد بيان الانفصال، فالتصقت به اذن ابراهيم بعد قليل اقترب عبد القادر من ابنه يتخذ له مقعداً. ولم تمض لحظات حتى قدمت جليلة لتستمع إلى الأخبار، ومن بعدها جاءت الدادا بصينية القهوة لتضعها أمامهم وهي تتساءل عن الحكاية التي لم تفهم منها شيئاً.

خيم الذهول على أهل الدار. وما عادت الموسيقا العسكرية بين فواصل الأخبار تسمع. جلس إبراهيم يواجه عبد القادر بنظرات يائسة، وكانت الكلمات تعجز عن خروجها من فم الاثنين، بينما جليلة بدت حائرة ولم تخدش الصمت الذي غرقا فيه. كان الصباح كئيباً.

كان حصول إبراهيم على رتبة نقيب قد حدث منذ شهور، قبل ذلك اللقاء الأول مع ليلى، ولكن أسبوعاً واحداً مرّ على اعلان الانفصال، ليوقف عن العمل. استدعته المخابرات العسكرية فخرج من مكتبه ليصبح نزيل القبو عندها، محفوفاً برجال ستة. عرف أنه بات قيد الاعتقال.

لم تكن الزنزانة لتستوعب هذا العدد الكبير من الموقوفين. رجال استندوا بظهورهم إلى الحائط، وآخرون وقفوا على أرجلهم فانضمّ إليهم إبراهيم. وتباهى عدد من الحضور بالإعلان عن أنهم ضد الانفصال، بينما الآخرون صمتوا، واستمرّ إبراهيم في الوقوف إلى أن مرت الليلة عليه دون أن تصدر عنه إشارة بالتذمر، بينما تعالت الأصوات تعلن عن الجوع. ومع الصباح استدعي إبراهيم بشكل منفرد، ليواجه محققاً ارتسمت على وجهه خطوط قوة. لم يتكلم الرجل، بل قدّم له ورقه حملت كلماتها صرفاً لابراهيم من الخدمة في الشرطة والأمن. ولم يملك إبراهيم سوى ابتسامة أثارت اهتمام المحقق. سأل إبراهيم ان كانت هذه الورقة تعنى الإبقاء عليه موقوفاً في القبو، لكن الجواب أتاه بالنفي. وسأل ان كان بإمكانه العودة إلى البيت، فقيل له إن إذنه معه. وتساءل ابراهيم وهو يغادر المبنى:

"الم تكن الحكاية كلها مهزلة، وتثير من بداياتها إلى ما انتهيت إليه، عجبي".

ماشياً يقطع شوارع المدينة، وقد قادته أقدامه ليصل إلى الخان. دخل غرفة والده الذي هب واقفاً يتساءل عن سبب غيابه الذي أقلق الجميع، فما كان من إبراهيم الاّ ان ارتمى على مقعد وهو يقول:

"شهادة كلية الحقوق ستنفع. قلت دوماً إنها مفيدة لأكون محامياً".

وأدرك عبد القادر لتوه أن النظام السياسي الجديد قد استغنى عن خدمات ابنه وقام بتسريحه، فلم يعلّق بكلمة. وجعل ابراهيم يقول لنفسه، فيسمع:

"لم أكن لائقاً كرجل أمن، لم أكن أبداً".

كان عبد القادر يفكر في طريقة لطيّ صفحة الماضي، فوجد نفسه مندفعاً إلى القول:

"يليق بك يا ولدي ما هو أفضل. أنت مؤهل لأي عمل يكون بك هو الأفضل".

أعاد إبراهيم استعراض الشريط القديم، وهو يدعو ليلى بواسطة سائقه. رآها تخرج من زحمة التشييع وهي منتصبة القامة تجول بنظراتها التائهة في أرجاء المقبرة. وكانت تتقدم منه لتجلس في السيارة إلى جانبه. ليلى التي ابتدأ حبه لها منذ اللحظات الأولى، بدت وكأنها تسمع سره:

"ليس لي غيرك يا ليلى، وليس لك أحد سواي".

وفي الدار قلق عبد القادر من بقاء ابراهيم لا يغادر غرفته. يدخل عليه فلا يقرأ أياً من علامات الاستسلام في وجه ابنه. في اليوم

الثالث استأذن إبراهيم أن يستخدم سيارته، فقال عبد القادر وهل أنت بحاجة إلى طلب إذن مني؟.

مصنع التبغ حيث ليلى. وقاد إبراهيم السيارة يسابقها بمشاعره. دخل مكتب المدير ولكنه فوجئ بآخر يحتل مكانه، واذا ما سأل عن ليلى عاملة الهاتف قيل له إنها طردت لأنها كانت عميلة للمخابرات الناصرية. فما أن خرج من المبنى حتى سمع يحادث نفسه:

"دفعت ليلى الثمن الذي لم يكن لها ذنب فيه".

وانطلق بالسيارة إلى المخيم. كان في الطريق إليه تنتابه مشاعر الذنب فلا يتغلب عليها إلا بالمحبة التي يحملها لها. ليلى البعيدة عنه فاذا هي تجلس قربه تغمره بكلمات تغمغمها، فيتطلع إليها ليجدها على أجنحة خيال يشعل خياله وجسده وتحملها مبتعدة عنه. كانت أمنيته ان تكون ملتصقة به فلا يسمح أن تفارقه. أن يمسك بكفها ويقول لها: "أريدك كما لم يحدث لرجل أحب امرأة مثلك".

استدل إبراهيم على بيتها من فتى يحمل سطل ماء، فتوجه إلى اطراف المخيم الذي كان في فضائه مستودع صفيح قديم من البقايا التي خلفتها جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. كان الوحيد الباقي من بين المستودعات التي سكنها أوائل المهاجرين الفلسطينيين، وهو الذي تقيم فيه ليلى مع أمها. تقدم من الباب ونقر عليه بأصابعه. انتظر وعاود المحاولة، بعد قليل أطلت ليلى كما هي تتضح بدهشة سقت الرغبة في أرض ابراهيم. جمد الاثنان وهما يحملقان في وجه

بعضهما البعض وقد بات ابراهيم يخشى الاّ تنطق بكلمة ترحيب، ولكنه أخطأ، فقد قالت ليلى:

"أهلا، وان كنت لا أعرف رتبتك فأناديك بها".

تساءل إن كنت سأبقى عند الباب، فقالت له تفضل بالدخول، ففعل.

لم يتصور من قبل أو الآن أن هذا هو بيت ليلى. كان المكان أشبه بصندوق شاحنة متسع يعلوه الصفيح. فسحة اسدلت على أجزاء منها ستاثر قماشية عن طرفيها، وبقي فيها ما يشبه الصالة انتشرت فيها صناديق من خشب اعدَّت للجلوس مع كرسيين قديمين. كان إبراهيم يمسح المشهد بعينيه لحظة دعته ليلى إلى كرسي للجلوس عليه، وهي تقول:

"لن تعثر هنا على أي شيء مما تبحث عنه كضابط أمن المخيم"

هبَّ واقفاً ليجول في الفسحة الضيقة، وكان يحاول أن يقول شيئاً، وفي آخر خطواته توقف ليقول:

"أرجو أخذ العلم بأني ما عدت أزور المخيم كضابط أمنه، فقد خرجت من الخدمة، صرفت منها".

ومع دهشة ليلى، جعل إبراهيم يقول:

"جئت كي أستفسر عن سبب فصلك من العمل".

وعاد إلى كرسيه، بينما قامت بتكاسل لتقف على قدميها، وهي تقول ساخرةً:

"دارت شائعة بين موظفي وعمال المؤسسة بأني أعمل مع مخابرات النظام السابق".

لم يعلّق على قولها بكلمة، بل ظلت عيناه تجوسان في المكان. وبصوت هامس سمعه إبراهيم قالت:

"احتال والدي على المستودع، فجعله مكاناً يأوينا، ثم رحل".

وقالت ان طفولتها شهدت كيف أن القطار رمانا في محطة اسمها بغداد، وابتسمت بسخرية مرة لتهتف:

"وصلنا إلى حلب ليلاً. الأب يقود زوجه وطفلين كنت انا واحدة منهما. الهدف كان قرية النيرب. كنت أسمع الرجال يقولون اننا سنعود بعد فترة من الاستراحة بعد مسيرة خرجنا فيها من فلسطين".

وبضعف يظلل وجهها الحزن، كانت تكمل:

"فقدنا المعيل. وبعد سنوات هرب أخي إلى لبنان وضاعت أخباره. كانت أمي تعمل في خدمة البيوت الحلبية. دخلت مدرسة الأونروا، ولم أكمل تعليمي لإكراهي على الزواج من العجوز الذي كان في عمر جدي".

ولم تجد ليلى مكاناً سوى منشر الغسيل الذي امتد حبله بين عمودين. وقفت عنده لتقول:

"هبطت عليّ من السماء فرصة اكسب منها قوت يومي. ولكن الشائعة التي هبت عليّ كغبار الصحراء، أطارت الفرصة، وعدت إلى الصفر".

انتشرت كلمات ليلى في فضاء المستودع كنحل يطنّ في أذنيه. كان إبراهيم يصغي إلى ليلى، وإذا توقفت صارت لغتها تجول في روحه. لخصت حياتها بإيجاز وكأنها تروى نكته قائلة عن تاريخ فتاة غيرها. وسألته ليلى إن كان يشرب الشاي فهزّ رأسه بالإيجاب. توجهت نحو ركن لتزيح القماش عنه فإذا هو المطبخ. وعاد إبراهيم إلى تفحص المكان ويحادث نفسه:

"تستحق ليلى مكاناً يليق بنكائها ووضوحها".

كانت رقة ليلى تفجر جمالها، وكان جمالها يتأكد في قوة شخصيتها التي لم يشاهدها في امرأة أخرى.

قالت ليلى وهما يشربان من كأس الشاي، والابتسامة الساخرة على وجهها:

"أظن أن الرياح ستقذف بي إلى مصنع التبغ فأعود إلى العمل".

ووجد إبراهيم نفسه يقف على قدميه فيتقدم خطوات من ليلى ليقول مصمماً:

"لا أريد لك أن تعودي. مكانك ليس في المصنع أو سنترال الهاتف".

وقالت إنك لا تريد، وإن هذا الأمر كما أعلم لن يتاح لي. فما كان من إبراهيم إلاّ أن تقدم خطوة أخرى وهو يقول إنه لا يليق بك أن تعودي، وأضاف:

"أطلب منك، بل أتمنى أن توافقي على الزواج مني".

وأخفت ليلى ابتلاع ريقها، محافظة على هدوئها بصعوبة. وما كان من إبراهيم إلاّ أن هتف بقوله:

"أحببتك منذ اللحظة الأولى، وسأحبك أبداً".

فارتعشت، ولم تستطع إلاّ أن انسرقت من بين شفيتها كلمة وأنا أيضاً. التقطها المحب، فكان كل شيء قد تجلى في الموافقة.

-١٩-

اصطحب عبد القادر ابنه إسماعيل الذي بلغ العاشرة من عمره ليؤديا صلاة الجمعة، وكانت المرة الأولى للابن، فهو سيدخل الجامع الأموي الكبير، وسيحكي لرفاق المدرسة عنه. وقد وعد الطفل بزيارة القلعة، فاستغل التبكير في هذا اليوم ليطلب من والده أن يقوما بهذه الزيارة. وكان عبد القادر قد أخفى عن ابنه أنه لم يزر القلعة من قبل. وهكذا وجدها فرصة له في إثبات ما خجل منه سابقاً فالقلعة كانت تختزن تاريخ حلب، ومن لم يزرها حُرم من متعة الماضي.

وتجمع الزوار حول الدليل السياحي ليقودهم إلى قاعة العرش فيقف أمامها عبد القادر وابنه بدهشة المفتون وكذلك فعل الآخرون وكان معظمهم من الأجانب. قال الدليل إن الزلزال الذي ضرب حلب في القرن الثامن عشر أدى إلى هدم سقف

القاعة بقبابها. وكان (سيف الدولة) أمير دولة الحمدانيين قد اجتمع في مجلسه العشرات من الشعراء والعلماء كأبي فراس والمتنبي والفارابي وغيرهم. هتف اسماعيل:

"الاّ يمكن للأمير ومجلسه أن تعود بهم الأيام لنشاهدهم في قاعة العرش؟".

فما كان من الدليل إلاّ أن انفجر ضاحكاً فيشاركه آخرون، بينما عبد القادر يتساءل في سره:

"ما الذي يحدث بانقضاء جيل فلا يتكرر مثله، وهل الزمن لا يعيد نفسه؟".

وكانت هناك جولة في أنحاء القلعة، فلم يتوقف إسماعيل عن سؤال والده عن خرائب، ليحيله إلى الدليل، آنذاك هتف الطفل معاتباً:

" ألا تتذكر شيئاً من أيامك القديمة في القلعة يا والدي؟".

فتوقف عبد القادر صامتاً عن عجزه عن الجواب، وإذا ما نظر إلى ساعته التي أخرجها من شاله يقول:

"لا نريد ان تفوتنا صلاة الجمعة يا إسماعيل".

ودخل الاثنان صحن الجامع الأموي متوجهين إلى (القبلية). قرآ الفاتحة أمام مقام سيدنا زكريا، وتوجها إلى صفوف المصلين. خطيب الجمعة اعتلى المنبر، وقد لوحظت حماسته بالرغم من أنه شيخ عجوز، وقد جاء في الخطبة مديح بحكومة الانفصال أشاد بها، وكان

في السنة الماضية قد استمع إلى الإمام نفسه يدعو لعبد الناصر فهو خير رئيس للبلاد وهو من نصره الله ووحّد العرب. واذا ما دعى إلى الصلاة انتظم المصلون في صفوف خاشعين.

"السلام عليكم ورحمه الله" يميناً ويساراً، همس بها الجميع فترددت أصداؤها في فراغ (القبلية)، وإذا برجل خرج من الصفوف متوجهاً إلى جموع المصلين بإعلان عن حديث بما يتعلق باحوال البلد التي وصلت إلى العار من حكم جائر وتمزيق لوحدة سورية مع مصر. ودام خطاب الرجل لدقائق اختفى بعدها، ليتبادل الجميع نظرات تساؤل وتأييد أو استغراب. ولحظة خروج الناس شوهد الجنود الذين اقتحموا صحن الجامع يلاحقون المصلين، وكان من وقع في أيديهم يقاد إلى الخارج حيث الشاحنات العسكرية تكون بانتظارهم ليُزجُّوا فيها. وأمسك عبد القادر بيد إسماعيل ليهرعا إلى الاختباء في واحد من المغاسل المنتشرة، فاختبآ في مرحاض طالباً الأب من ابنه الصمت خوف اكتشاف أمرهما. ولبثا في مكانهما طويلاً، وما أن تحركت الشاحنات واختفت أصوات الجنود ووقع أقدامهم، خرجا مسرعين إلى السيارة التي أوقفت بعيداً، فكان حضنها أماناً لهما.

كانت الأسواق مقفلة بسبب الجمعة، إلاّ أن حركة الجنود أثارت الذعر في نفوس المشاة، وما أن انصرفت الشاحنات، حتى عادت خطوات المارة إلى الانتظام. وتساءل إسماعيل في طريق العودة إلى الدار:

"لم أفهم شيئاً من أقوال الإمام الخطيب، كما لم أعلم ما الذي يريده ذلك الرجل. ولماذا كان الجنود غاضبين".

وتجاوز عبد القادر أسئلة ابنه، قال:

'كان الأفضل لنا يا ولدي في مثل هذه الظروف أن نؤدي صلاة الجمعة في مسجد الحي".

يقتربان من الحي، وتساءل إسماعيل عن حكاية الاختباء في المغاسل، فكان عبد القادر يصحح:

"اختفينا عن أعين الجنود في مرحاض، وان كنا نفضّله على الوقوع بين أيديهم".

واستفسر إسماعيل عن أهمية الوقوع بين ايدي الجنود، فقال الأب:

"أولاً نحن نريد العودة إلى الدار وليس في الشاحنة، وثانياً فإن سيارتنا اكثر أماناً".

في اليوم التالي أصبحت حكاية الاختباء عن عيون الجنود مثار ضحك زوار مجلس عبد القادر الحلبي، إلاّ أن روايته عن إمام الجامع في انقلابه على عهد الوحدة ليصبح مع حكومة الانفصال، أثارت استنكار الجميع، وتجرأ أحدهم على الحديث عن الضعف الأخلاقي لعدد من رجال الدين. وعلق آخر بسخرية أن من يتزوج أمي أقول له يا عمي.

عصراً حضر إبراهيم، وكان والده وحيداً يغرق في الحسابات التي نشر دفاترها على طاولة المكتب يدقق فيها، فلبث القادم ينتظر إنجاز عمله. وما أن انتهى عبد القادر من المراجعة حتى رحب من جديد بابراهيم، والذي كان تردده يخفي ما يضمره فيحار في الإفصاح عنه، مما دفع الوالد الى التساؤل عن سره ويسأل مستفسراً إن كان يخفي أمراً، وقال عبد القادر:

"اعتقد أن شيئاً ما تريد أن تقوله لي".

فهتف ابراهيم بعد مكابدة، ولم تكن قبلاً فيه:

"قررت انْ أتزوج".

جمد عبد القادر في مقعده، إلاّ أنه تحرر من موقفه ليقول:

"وأنا أبارك زواجك يا ولدي".

وقام من مقعده وكأنه يستدرك ما قاله، فسأل:

"وهل اخترت؟ أنت تحسن الاختيار دون ريب".

فكان ابراهيم يقف على قدميه ويقول بثقة:

"ليست من الحي، كما أنها ليست من الأحياء القريبة أو البعيدة".

الدقائق التي مرت عليهما بدت أشبه بزمن متحجر يحاول الوالد والابن تجاوزه، كانا يبذلان جهداً لجعله أكثر مرونة كي تتقضي تلك الدقائق. نجح إبراهيم في مسعاه وهو يقول:

"الزوجة هي صبية نكية. انا اخترت امرأة فلسطينية. أحببتها وهي تستحقني واستحقها".

كان عبد القادر يعرف حقيقة تفكير وشخصية ابنه إبراهيم ، إلاّ أنه لم يره بمثل تلك الصلابة، فكتم الاعجاب في نفسه فلم يفصح عنه، وانطلق بقوله على بركة الله يا ولدي. وسأل إبراهيم ان كان سيقيم في الدار الكبيرة، أم أنه سيختار واحداً من البيوت التي ورثها مع أخته من والدته ام الخير. آنذاك قال إبراهيم بعد تفكير:

"سأقيم معكم إلى أن أنهي فترة التدريب في مكتب للمحاماة، ومن بعد ذلك سيكون لي رأي".

في تلك الليلة حمل عبد القادر إلى جليلة الخبر. إبراهيم قرر الزواج. تعليق جليلة اصطبغ بالفرح الذي دفعها إلى اطلاق زغرودة. وأما عبد القادر فجعل يقول إنَّ إبراهيم لا يشبه أحداً من الرجال ولكنه أقرب الناس إلى من حمل اسمه. كان ابراهيم هنانو واليوم ابراهيم الحلبي. وقال عبد القادر ان ابنه الذي هو من صلبه يصلح ان يكون زعيماً ورجلاً بارزاً في مجتمعه.

وعادت عائشة من دمشق، وقد أنهت دراستها في كلية الطب والتدريب المطلوب في مشفاها. استقبلتها العائلة وهتفت بصوت واحد:

"أهلاً ومرحباً بعودة الدكتورة عائشة".

وكان ان افتقدت عائشة الدادا حلوم وهي تتفحص وجوه المستقبلين فلم تكن بينهم. سألت عنها، فقيل إنها طريحة الفراش، فهرعت إلى غرفتها تدفعها اللهفة. واستقبلتها الدادا بابتسامة شاحبة وهي لا تستطيع رفع رأسها عن المخدة. غمرتها عائشة بالقبلات، تساءلت إن كان طبيب قد زارها، فكان عبد القادر يقول بأن أكثر من طبيب عادها. الدادا حلوم التي أنهكها العمر، اسلمت الروح بعد يوم من عودة الدكتورة عائشة.

-٢٠-

أقيم مجلس عزاء في ساحة الخان، وقد ظل الرجال في مساء يومين متعاقبين يتواردون لتقديم الواجب، وظنّ عدد منهم أن عبد القادر قد فقد أمه لما ظهر عليه من حزن وما استدعاه من قراء تناوب ثلاثة منهم على ترتيل آيات من القرآن الكريم. وفتحت أبواب الدار للنسوة، وقادت (الشيخة) فريقاً يقرؤون في (جرء عمّ) ويتلون من سيرة النبي، لينتهي الجمع بتوزيع مسبحة على كل امرأة لقراءة (الودودية) فكانت قرقعة الكرات الخشبية للمسبحة تتداخل مع الكلمات المتلاحقات (يا ودود.. يا ودود..) واختتم العزاء فدعي المقربون إلى العشاء في اليوم الثالث، حيث نصبت المائدة الكبرى في حوش الدار، وقُدّم (عش البلبل) مع (العيران)، وكما هو الحال قُدّم للمعزين (الكنافة بنارين).

كانت الدادا قد دفنت في قبر مجاور لقبر أم الخير، فكانت خطة من عبد القادر لتبقى المربية مع الزوجة متجاورتين كما كانتا منذ عهد طويل. ولم يكن هناك حديث في الأيام التالية سوى وفاء عبد القادر الحلبي للدادا حلوم، فقام احترام للرجل وتقدير عند معظم الناس.

ولم يشأ إبراهيم أن يقيم حفلاً لزواجه من ليلى، احتراماً لذكرى الدادا التي لم تكمل أربعينيتها. اكتفى بعقد قرانه في المحكمة الشرعية بحضور شاهدين كان أحدهما والده، ليعود إلى الدار ظهراً. وكان أول انطباع عن الدار دهشة ليلى التي ألقت النظرة الأولى عليها، بينما شغلت بترحيب جليلة التي غمز لها زوجها بعينه إلاّ تطلق زغزودة ولهفة عائشة التي أسرَّت في أذنها أنها ستكون اختاً لها، فيما كان الأطفال يرددون أهلاً بليلى. ومنذ تلك اللحظات المؤثرة أحست ليلى بأن أفراد عائلة ابراهيم سيصبحون أهلها. وعادت إلى التعلق بذراع زوجها فكانا كجسد واحد. الآن تشعر بأنه رجلها الحقيقي، وان الحياة قد ابتدأت اليوم.

هرعت جليلة إلى المطبخ استعداداً لإعداد مائدة الغداء، فاذا بليلى تسرع إلى مساعدتها، مفتتحة بذلك الانخراط في العائلة. واكتملت المائدة فوقف عبد القادر على رأسها ليقول:

"جاءني ابراهيم ليكون أول القادمين إلى اسرتي. سعادتي كانت كبيرة بقدومه، واليوم صارت سعادتي أكبر بليلى وقد

أصحبت شريكة له وواحدة من العائلة التي أرجو الله أن تملأ الدار بالأولاد والمحبة.

أهلاً بك يا ابنتنا ليلى".

ولم تسمح العروس للدموع أن تكشف عن تأثرها، فمسحتها من عينيها، وكانت تتساءل في سرها:

"أيمكن لأحد أن يكون في الجحيم، وبغمضة عين ينقلب إلى جنة. لم أعرف سوى الهجرة والفقر وتجربة الزواج الفاشلة، فإذا بنعمة الزوج والأهل تهبط عليّ من السماء، وهذا ما لم أعرفه من قبل".

وطلب ابراهيم منها أن تعلق على الوالد بكلمة. تحاملت على نفسها لتقف وتقول وحنجرتها تغصّ بالدموع:

"كنت أبحث عن المحبة، مرت الأيام ولكني وجدتها أخيراً".

بعد أيام، زار إبراهيم والده في الخان. فوجئ عبد القادر به يحدثه عن عائشة:

"زميل لها طبيب سيأتي إليك، وأتوقّع أن يحضر بعد قليل. أتمنى أن تسمح لي باستقباله معك".

وكانت عائشة قد طلبت من ابراهيم لقاء زميلها كي يكون القرار لرجال العائلة. وقال عبد القادر:

"أهلاً بزميل الدكتورة عائشة. نحن نرحب به، وأتصور أن مشروعاً له علاقة بشراكة في إنشاء مستشفى، أو شيئاً له صلة بشيء طبي".

تخابث إبراهيم بقوله إن للأطباء مشاريعهم، وسنعرف قريباً ما يريده الطبيب الزميل.

استأذن الدكتور طالب بالدخول. عرف بنفسه، فلقي الترحيب من صاحب الخان، بينما اكتفى ابراهيم برد التحية. وقال عبد القادر بعد تقديم القهوة للضيف:

"أعرف القليل عن المشروع الذي تريد إقامته مع الدكتورة عائشة"

وسارع الدكتور طالب إلى القول بأن والده الدكتور أحمد يشرفه ان يلتقي بكم، فما كان من عبد القادر الاّ أن هتف قائلاً وكأنما يريد أن يضع نهاية لهذا الحديث:

"وأنا على استعداد لدعم التمويل شرط اطلاعي على جميع تفاصيل المشروع".

واذا بالدكتور طالب أراد ان يوضح الأمر الذي جاء من أجله، فما كان من عبد القادر إلاّ أن أعلن ترحيبه بوالده، وقال إن أيّ مشروع يخصّ ابنته الدكتورة عائشة سينال موافقته.

فلم يملك الدكتور طالب سوى القول:

"يا عمي لقد جئت طالباً يد الدكتورة عائشة، ومهدت لحضور والدي كي يصبح الطلب رسمياً. وهذا ماجئت من أجله".

عبد القادر متسمر من مقعده، زحف الجمود على وجهه فلا ترفُّ له عين. بعد حين تبادل النظرات مع إبراهيم ليقرأ في عينيه ما يمكن

ان ينطق لسانه به. تخيل عبد القادر أن سوء تفاهم قد حدث والذنب يقع على إبراهيم. فانطلق عبد القادر قائلاً:

"يسرني يا دكتور طالب أن أستقبل والدك. دارنا ستتشرفها الزيارة"

هبّ الخاطب من مقعده ليشكر عبد القادر ويطلب الإذن بالمغادرة تدفع به السعادة إلى ساحة الخان. وفجأة سأل الأب ابنه عن الدكتور طالب وأهله، فكان رد ابراهيم:

"إنه يليق بعائشة. الشاب من أسرة كريمة. هي عائشة اختي وابنتك الغالية، ولن تفرّط بها إلاّ لزوج مشرف، وهذا رجل يليق بنا وبعائشة".

وقال مغادراً الغرفة، وكأنه يتخذ قراراً حاسماً:

"الدكتور طالب زوج مناسب، وأتمنى عليك أن توافق".

مساء في الدار التقى الرجلان. الدكتور أحمد المرزوقي مع ابنه، وعبد القادر الحلبي دون حضور ابراهيم الذي كان رأيه القاطع حاضراً. كانت فترة التعارف قصيرة، أعقبها طلب الزواج. أحسّ عبد القادر أن ابنته عائشة ستخرج من دائرة اسرته، لكنه لم يملك سوى الموافقة. قرئت الفاتحة، فكانت كلماتها تخرج من بين شفتيه بطيئة وشاقة. عائشة الصغيرة أصبحت امرأة.

تساءل عبد القادر عن مستقبل ابنته الطبي في ظل علاقتها بخطيبها، فابتسم الدكتور احمد وهو يقول:

"وهل يعقل لزوجين طبيبين ألاّ يكونا في عيادة مشتركة!" .

إلاّ أنه دخل في موضوع الزواج ليسأل عبد القادر عن عدم الخوض في قضية المهر، مما دفع الحلبي إلى قول تأثر الدكتور أحمد به:

"هو موضوع ثانوي ولا خلاف عليه؟ ابنتي لا خوف عليها وابنك لا خوف منه".

وسيدهش الدكتور أحمد لسماع ذلك القول من رجل يملك تجارة، وقال لنفسه:

"أيعقل لرجل مثله أن يكون في مجتمع تنتمي إليه جموع حلب،ثم أيعقل لجماعة من أهل اليسار السياسي أن لا يفكروا مثله؟".

وشهد يوم من فصل الربيع احتفالاً في الدار الكبيرة. أقيم العرس فخرجت عائشة مع عريسها من بيت العائلة على إيقاع دموع عبد القادر الخفية وقد حفلت بها عيناه، والتي حبسها إلى وقت خلوه مع نفسه بعيداً عن الآخرين.

وفي يوم ربيعي آخر في زمن آخر، تناقلت أخبار الراديو الانتهاء من عهد الانفصال. كانت شمس آذار قوية كصيف مبكر، فخرجت تظاهرات إلى الشوارع مهلّلة ومستبشرة، ودارت في الساحات حلقات الدبكة، وليلاً حملت أفراد الكشفية المشاعل ودارت بها في أهمّ شوارع المدينة. وكانت غرفة صاحب الخان التي تصدرها عبد

القادر قد شهدت تدفق الوفود عليها، من أصدقاء وأهل الحي يسعون إلى الاستماع إلى آراء الرجل الذي لم يتوقف عن الثناء على الرجال الذين يهدفون إلى إعادة الوحدة كما كانت في سابق عهدها.

-٢١-

ها هي المعدات قد وصلت إلى مرفأ اللاذقية. وكان عبد القادر قد اتخذ قرار بتطوير معمل العلف، فقام باستيراد أحدث الأجهزة من إيطاليا، إلاّ أن عماله ابتدؤوا يستشعرون الخوف من أن تحل الآلات مكانهم ليستغنى عنهم أو عن معظمهم، فكان عبد القادر أن طمأنهم فلا خوف عليهم ولا يمكن لرجل مثله أن يتخلى عن الذين عملوا معه مهما كانت الأحوال والظروف. ويوم تركيب المعمل الجديد وقد قام بها فنيون رافقوا تلك الأجهزة، دخل الخان مرحلة مختلفة عن الزمن الذي مضى.

هتف عبد القادر وحيداً في غرفة الخان:

"إبراهيم أصبح في نهاية المطاف محامياً. عائشة اجتهدت لتكون طبيبة. أما أنت يا عبد القادر الحلبي فأدخلت إلى الحي القديم صناعة جديدة، بل حوّلت علف الحيوانات إلى ما يشبه طعام الانسان المعلب".

وكان عبد القادر ما يزال يحافظ على لباسه الشعبي التقليدي بالرغم من دخوله عصر الصناعة، وهو متمسك بتجارة المحاصيل

والمنتجات الزراعية التي بقيت كما كانت عليه منذ مئات السنين. ويوم دعي إلى زيارة قصر المحافظة مع عدد كبير من رجالات الأحياء البارزين من أصحاب المهن المهمّين، وذلك للترحيب بأول محافظ في عهد الثامن من آذار، فقد لبى الدعوة داخلاً مع الوفود بلباسه الشعبي، فكان علامة بارزة وهو يظهر بأعلى درجات الاناقة لهذا اللباس، مما دفع الحضور إلى الحديث عنه بإعجاب كبير. كان مظهره يدل على أناقة الأثرياء القادمين من عصور سابقة، وكأن عبد القادر الحلبي انسلّ هارباً من زمن قديم. ولفت انتباه المحافظ الجديد ما هو عليه مشهد هذا الرجل، فكان أنْ خصّه باهتمام يليق بزعيم.

وتابع إبراهيم فترة التدريب في مكتب محام معروف. ولم تكد تمر عليه شهور حتى كلفة الأستاذ بعدد من القضايا في المحاكم، فكان جهده واجتهاده يعينانه على التقدم في النجاح، ويؤهلانه ليكون محامياً مستقلاً.

وأما عائشة فقد افتتحت مع زوجها عيادة في وسط المدينة، بينما كان سكنها في طرف من المدينة الذي أحدث فيه حي هادئ توزعت فيه الحدائق الصغيرة. إلاّ أن لقاء يوم الجمعة في دار الحلبي والذي بات عادة يجتمع فيه أفراد العائلة، ليمضوا مساءهم في الطعام وتبادل الحوار في شؤونهم، ويعلقون على أحداث المدينة من سياسة واقتصاد، ويتبادلون النوادر. وكان إبراهيم ينقل إليهم طرائف القضاء، أما عائشة وطالب فكانا يتناوبان الحكايات عن الوعي

الصحي الذي يفتقده معظم الناس. جليلة تتحدث عن أولادها الذين يتسارع نموهم دون مرور يوم على شغبهم المحبب. وتجلس ليلى صامتة يتخلل سكوتها الحديث أحياناً عن المأساة الفلسطينية فتشير إلى أسفها بأن العديد من الحكومات العربية لم تتفاعل مع هذه المأساة مهملة لها وتاركة الزمن لاستفحالها. وكان عبد القادر يستمع إلى الجميع بسعادة فلا يتدخل إلاّ في حل مشكلة قد تلوح في الجو.

الأيام تدلّ على الزمن، وهكذا تتعاقب الأيام فيستقل ابراهيم بمكتب، فكان المتدرب اللامع ليصبح المحامي الذي ترسّخ اسمه بين الناس وفي أروقة القضاء. واذا ما أراد مع زوجته السكن في بيت يخصهم، خضع عبد القادر مكرهاً لقرار ابنه، فكان المنزل في واحد من ممتلكات أمه، ليحوّله مع زوجه ليلى إلى ما يشبه عش المحبين.

كانت عائشة قد رزقت بصبي، ولما كان زواج ابراهيم قد سبقها، فانه شكا لها عدم ظهور أي حمل على ليلى. هو يرفض اللجوء إلى المشايخ ساخراً من تعاويذهم وأحجبتهم، ولكن كبرياءه منعته من اللجوء إلى طبيب. وهكذا توالت زيارات الأطباء ترافق فيها الدكتورة عائشة زوجة أخيها، ولم تكن هناك من نتائج مشجعه. وفي زيارة لأستاذ في كلية الطب بدمشق، قيل بعد فحص ليلى أن على زوجها أن يحضر ليتم اختبار حالته. حضر إبراهيم في اليوم نفسه، وخضع لما أمر به الأستاذ الجامعي من كشوف وتحاليل، فكان أمام حقيقة واحدة. قيل له:

"لا تستطيع أن تنجب فحيواناتك المنوية لا تملك الحيوية".

وسافر إبراهيم وحيداً إلى مشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فكانت النتائج التي حصل عليها مطابقة لما قيل له في دمشق. فهل حكم عليه بالمؤبد عقماً، وحرمت ليلى من الأمومة؟

وفي اجتماع العائلة الأسبوعي، حملت تلك الجمعة سراً أخفاه إبراهيم وعائشة. ففي المساء كان صبي يطرق باب الدار ليفتح له، وقام بتسليم صندوق الكرتون إلى إسماعيل الذي حمله ليضعه على المائدة في (غرفة المسافرين)، واذا ما كشفت جليلة غطاء الصندوق، تبين للعائلة أنها كعكة كبيرة رصت عليها شموع صغيرة. تقدم من الوالد كل من ابراهيم وعائشة وبصوت واحد هتفا:

"كلّ عام وأنت على رأس العائلة بكل الخير، يا عبد القادر الحلبي".

وأشعِلت الشموع التي اصطفت في دوائر على وجه الكعكة، أطفأها عبد القادر. وكان عيد ميلاد لم تشهد له الأسرة أو الحي، فكأنه بداية لعادة اجتماعية مستوردة. سأل عبد القادر:

"خمس وستون شمعة، فهل تعني أني بلغت الخامسة الستين من العمر".

وسأل ابنيه إن كان توقيت مولده قد عرف حقاً، فرد ابراهيم بالقول:

"انتهى منذ سنين كثيرة منتصف القرن العشرين، ولقد تأخرنا كثيراً عن الاحتفال بعيد ميلادك".

قال عبد القادر وهو يخفي تأثره:

"قد أكون بلغت هذا العمر كما تريدون، ولكن إدارة النفوس لم تكن تدقّق سابقاً كما نفعل الآن".

هتفت عائشة وهي تساعد والدها بتقطيع الكعكة:

"شيخ الشباب أنت مهما بلغت من عمر".

وامتلأت صحون الصغار والكبار بقطع الكاتو التي أدهشهم طعمها. وكان يدور كلام في نفس الأب:

"لتدم نعمة المحبة على هذه العائلة".

ومنذ أيام زيارة الأطباء مع عائشة، مرت أسابيع تطويها الأيام دون أن تسأل ليلى عن طبيب، فلقد تركت الزوجة أمر حملها للأقدار، بينما ابراهيم الذي علم بعقمه فانه لن يبوح بسره، فهو يحس بالذنب ويشعر بالأسى لعجزه عن منح ليلى سرّ الحياة، إلاّ أنه لم ينقطع لحظة عن حبها، ويغمرها به. وتساءلت ليلى إن كان إبراهيم ما عاد ليهتم بالإنجاب وأنه استسلم للقدر.

طلبت جليلة من زوجها أن تزور والدها الذي بلغها مرضه. لم يرافقها عبد القادر لانشغاله، وأعدّ لها سيارة أجرة يرافقها فيها عامل من الخان، ليكون بانتظارها في عفرين ويعود بها مساء. تمنت جليلة

أن يرافقها الأولاد لزيارة جدهم، لكنها لم تجرؤ على حرمانهم من المدرسة. كان زوجها يحرص على ألاّ يغيب أحد من أولاده عن المدرسة، وهو الذي طالما قال إن حرمانه من استكمال تعليمه كان له أثر بالغ في حياته، لذا لن يسمح لأولاده بالوقوع في التجربة. ومضت السيارة بجليلة مع مرافقها الذي صرخ فجأة منبهاً لخروج شاحنة من المنعطف وهي تحمل الحجارة، فما كان من السائقين إلاّ القيام بكبح سرعتيهما، ولكن الاصطدام كان لا بد منه. وسُجلت الواقعة في قيود مخفر الشرطة التي أشارت إلى حادثه على طريق عفرين في وقت الظهر.

وتلقى عبد القادر اتصالا من قسم الاسعاف عند الغروب يعلمه العامل الذي رافق زوجته بوقوع حادث على طريق السفر. فطار بسيارته وهو يدعو الله أن تكون جليلة بخير، وكان يردد لنفسه بما أنه لم يخبرني بشيء عن جليلة فهي سالمة. دخل عبد القادر جناح الإسعاف في مشفى الرازي بحلب، وكان المرافق قد رقد في السرير يلفّ الشاش رأسه وذراعه. ومنذ اللحظة الأولى سأل عبد القادر عن زوجته جليلة ام اسماعيل، فكان جواب المرافق دموع في عينيه. فلم يستطع عبد القادر أن يفهم، وعاود السؤال، فكان الجواب:

"حسبنا الله ونعم الوكيل. رحم الله الستَّ جليلة".

اختنقت الآهة في حنجرة عبد القادر، عجز عن الصراخ ومادت الأرض تحت قدميه فتهاوى كجذع شجرة هوى عليها

فأس، فما كان من طبيب بجانبه إلاّ أن تلقاه بذراعيه فأجلسه على كرسي قريب. مرت دقائق وهو في ذهول، إلاّ أنّه وقف فجأة يتمتم بصوت مسموع:

"أريد أن أراها. لا أصدّق حتى أراها بأم العين".

في غرفة أخرى رآها مسجاة على لوح خشبي. نائمة هي، فكان المفجوع يقترب منها بخطوات حذرة، بينما الطبيب كان يقول ان العنق المكسور بفعل الصدمة كان سببا للوفاة وأن السيدة قد فقدت الحياة للتو. انكبّ عبد القادر على زوجه جليلة التي لن ينعم برؤياها بعد اليوم. رحلت ولن تعود.

-٢٢-

وعاد الحزن غيمة خيمت ثقيلة على أهل الدار. أمطرت فأغرقت الجميع. وبعد أيام من عويل أبناء جليلة الأربعة، ونحيب أهلها الذين حضروا من عفرين، انتهت فترة تقديم العزاء من سكان الحي والقادمين من خارجه، وغادر الدار ابراهيم مع زوجه وعائشة مع أسرتها، بعد أن اطمأنوا الى استخدام امرأة اسمها (فاته) أرسلها والد جليلة لخدمة الأولاد الذين لم يعد لهم أحد يقوم على رعايتهم.

وكانت السنوات السابقة التي مرّت على عبد القادر في نيته أن يحج الى بيت الله الحرام مع جليلة، فلم تتحقق الأمنية. أكان السبب

في أن الزوجة خافت على أولادها من فترة الغياب في الحج، أم أن انشغال عبد القادر في إدارة أعماله التي ما زالت تنمو وتتطور بالرغم من فترات تعثُّر الاقتصاد في البلد. ومنذ رحيل جليلة المفاجيء، غرق الحلبي في بحيرة الحزن والكآبة، فلم يكن له من عزاء إلا في الأبناء وفي متابعة العمل واللقاء في الخان.

"هل قدّر عليك يا عبد القادر الحلبي أن تفقد زوجة إثر أخرى".

وكان هو الكلام الذي يدور في نفسه دون أن يجد جواباً له، ولكن الاستسلام للقدر كان الغالب. واستحضر خياله زوجته جليلة إلى جانب أم الخير. المرأتان كانتا تدوران في حقل نمت فيه أزهار اللبن، يقطفان من نبتاتها ويتحادثان بهمس لم يصله. صور تتتابع فيحس بالحنين الى ذلك الزمن.

أصبح توقيت عبد القادر الجديد ليومه، فمنذ بداية السابعة صباحاً يسعى ماشياً ليكون في الخان مع توارد عماله عليه، بل كان يسبقهم أحياناً، وقد أثار توقيته استغراب الجميع، فكان يقال إنّه ما عاد يطيق البقاء في الدار، فالرجل ما عاد أيضا يغادر الخان إلاّ في وقت متأخر. عبد القادر لم يكن كعادته، بل إن تجهّمه ظلّ سائداً كما لم يكن في أي يوم.

في ذلك اليوم الحزيراني هجم الحر على المدينة مبكراً. كان عبد القادر في غرفته يستمع الى الراديو ، فإذا بخبر يدويّ في سمعه، وتمنى لو أنه لم يدخل أعماقه عبر أذنيه، إلاّ أن الاستماع إليه في

أكثر من محطة أقعده فلا قدرة له على تحريك عضو في جسده. الطائرات الإسرائيلية تحوم في سماء دمشق، وهذا يكفي للذهول القاتل، هبّ واقفاً ليدور في الغرفة، وكان سمعه يلاحق التقارير القادمة من الجبهة الجنوبية المشتعلة، فاذا بلغه دحر قوات العدو البرية مع تساقط طائراته المغيرة على دمشق كالذباب، قفز في الهواء كشاب وهو يهتف بحياة سورية.

قبيل الغروب جاء إبراهيم غاضباً. دخل غرفة عبد القادر الذي استقبله بابتسامة لم يعرفها وجهه منذ أسابيع وهو يهتف بسعادة:

"عدوان إسرائيل علينا سيكون وبالاً عليها".

فما كان من ابراهيم الاّ أن صاح من الم:

"قوات جيشنا تصد العدوان، و هناك من يريد لاسرائيل أن تكسب الحرب".

كان إبراهيم قد خرج من بيته متأخراً في هذا الصباح، يريد أنْ يقصد مكتبه فسلك الطريق المختصر ليمرّ في الأسواق، وهناك كانت أجهزة الراديو ترتفع وتيرة أصواتها، وقف مصغياً إلى الأخبار بسمعه الذاهل. عدوان طائرات اسرائيل على دمشق حبست أنفاسه. كانت الساعة تقترب من منتصف النهار عندما مرّ بسوق (باب جنين) فكانت المفاجأة. كل الدكاكين على طرفي السوق المغطى سقفه بالخيش، كانت خالية من البضائع، لا وجود للرز والسكر والبرغل والعدس، وفُقد الفرّوج وأرجله ورؤوسه، وكما يقال صفّر الهواء في

محلات الجزارين فلم يعثر على أثر للغنم والجمال والبقر. سأل عدداً من أصحاب الدكاكين فقيل له إن أهل حلب يخافون الحرب أن لا توفّر لهم الطعام، فكان الغزو الذي قضى على ما احتواه السوق. وهرع إبراهيم ليستطلع الحال في سوق (المدينة) الأكبر في المدينة، فاذا هو كسابقه. ودخل إلى واحد من تفرعات السوق الكبير ليعرج على رجل من معارف والده، وكان يمتلك مستودعاً هائلاً للأقمشة من كل الأنواع. رحّب الرجل بإبراهيم وأمر له بالشاي، قال متسائلاً:

"أيعجبك حال هذه الحرب يا أستاذ؟".

فما كان من إبراهيم إلاّ أن هتف بغضب:

"الجيش يدافع عن الوطن، والشعب يفرغ الأسواق من كل أنواع الطعام".

مال الرجل على إبراهيم يحاول الهمس ليقول بأننا نستحق ذلك، فحكومة الحزب لم تترك لنا شيئاً، ويضيف حانقاً:

"ليت إسرائيل تخلّصنا من هذا الحكم".

هب ابراهيم من مقعده واقفاً، ورمى بكأس الشاي إلى الأرض فتطايرت قطع الزجاج. خرج من المستودع غاضباً. وما كان أمامه سوى التوجّه إلى الخان.

وهكذا روى إبراهيم لوالده أحداث يومه بكثير من تفاصيلها. وجد والده ينتفض ثائراً على رجل المستودع، فيصيح:

"الوغد، فهذا الرجل استقبلته في الغرفة أكثر من مرة. أيمكن تخيّل أحد جاء إلى هنا ويتمنى ان تنتصر اسرائيل علينا؟".

وظل يردد كلمة (الوغد) أكثر من مرة، مما دفع ابراهيم إلى محاولة التخفيف من غضبه. لقد ازداد الشعور بأهمية عبد القادر الحلبي الذي لم يكن أبا له فحسب، بل انه الرجل الذي عرف ذات يوم بموقفه من الاحتلال الفرنسي. وتساءل إبراهيم عن خوف الناس على بطونهم ، فجاءه الجواب:

"لم نبلغ بعد يا ولدي درجة من الوعي، فلنغفر للناس جهلهم بقيمة الوطن".

توقفت الحرب بعد أيام ستة. عادت الطمأنينة إلى النفوس، فاستأنفت المدينة حياتها الطبيعية. بقيت الشوارع والأزقة تملأ أرصفتها ربطات الخبز التي تخلى عنها أصحابها، ليُشاهِد الفقراء يتخاطفونها وآخرون يجمعونها لصالح مربّي الأغنام. وكان قد انتشر في المدينة خبر الانسحاب العشوائي الذي مرّ به أفراد من الجيش هرباً من الأسلحة الإسرائيلية. آنذاك قال عبد القادر:

"إسرائيل كيان دخيل على الجسد العربي، وهو الذي اعتدى على أهل فلسطين وطردهم من أرضهم، ومازالت تهدف إلى التوسع ليمتدّ كيانها من النيل إلى الفرات. هل نسمح بذلك؟".

وتساءل واحد من مزارعي الجزيرة حضر إلى اجتماع الغرفة:

"أيمكن لهذا الكيان الذي سمي باسرائيل ان يستولي على مدينتي الرقة؟".

فأشار عبد القادر إلى خارطة سورية، وكان في قوله تحذير:
"الرقة ودير الزور، ومن قبلها منبج والباب، وستكون حلب معهم"
صاح المزارع ترافقه صيحات آخرين:
"يا ويلنا. يا للمصيبة!" .
ولكن عبد القادر الذي بدا في هدوء زعيم يطلق حكمه، قال:
"ما دام التضامن العربي يملك الارادة والقوة فالخطّة لن تنجح".
وهتف رجل من أهل الحي بالقول:
"وهل استطعنا في الخامس من حزيران، الذي مازالت آثاره باقية، أن نحقق انتصاراً؟".
أجاب عبد القادر بيقين العارفين:
"المعارك كرّ وفرّ. تخسر مرة وتكسب أخرى، ولن يكون للعرب سوى إلغاء دولة العدوان".
ودوى صوته في أرجاء الغرفة:
"ألم يعلمنا درس الاحتلال الفرنسي لبلادنا. قاومناه وانتصرنا".

-٢٣-

كان إبراهيم يقوم يومياً بالطواف على عدد من المكتبات، فيشتري الجرائد والمجلات، واذا ما عثر على كتاب جديد جعل يقلب صفحاته ليتأكد من رغبته في شرائه. كتبٌ في السياسة والتاريخ والاقتصاد وأحياناً في العلوم. وعُرف إبراهيم عند أصحاب تلك المكتبات

بالمحامي النهم في القراءة، فكانت له حظوة عندهم، واذا ما هُرّب كتاب منعته الرقابة من التداول يُعرض سراً على إبراهيم. كانت مكتبته الشخصية تضمّ الكثير من تلك الكتب التي غلب عليها ما صدر عن الديانات أو القضايا السياسية. ووجدت الزوجة ليلى الفرصة للقراءة في أوقات فراغها الطويلة والتي حرمت فيها من طفل ترعاه ويشغل حياتها.

وكانت الشهور التي أعقبت حرب الخامس حزيران قد شهدت بحثاً من بعض الناس عن كتب التاريخ السوري والعربي، فكأن القراء باتوا يبحثون وينقبون عن أسباب الهزيمة.

وابتدأ تسلل المشاعر اليائسة، فكانت كتب التراث الديني التي خرجت على الناس هي التي يلجؤون إليها. كان الكثير من الناس يهربون إلى الماضي ويتعللون بالابتهال والدعاء.

ظل إبراهيم يتابع تلك الظاهرة التي مرّ بها المجتمع، ولم تتوقف عن الانتشار بزحف بطيء. محامون وأطباء، تجار ومهندسون، طلاب جامعة وثانويات، أساتذة ومعلمون، وغيرهم وقد طغت عليهم نزعة دينية قادها مشايخ جوامع ورجال تنظيم سياسي. وما لبث عدد من النسوة اللواتي كن سافرات ان استخدمن الحجاب لتغطية شعر الرأس، وأحياناً الوجه من دون العينيين.

واستمر لقاء الجمعة في دار الوالد. اجتمع الجميع باستثناء صفية. سألت ليلى بعد قليل عن الفتاة التي افتقدتها، وكانت الأقرب إلى قلبها،

فعللت عائشة الغياب بأنها قد تكون محتارة في اختيار ثوبها، وقال إبراهيم عن أخته أنها لا بد لها من إنهاء دروسها الخاصة. ودخلت (فاته) بكؤوس التمر هندي، فإذا ما سمعت بغياب صفية عن الاجتماع الأسبوعي هتفت بلغتها العربية المتكسرة:

"البنت صفية كتير زعلانة".

وتساءل عبد القادر عن السبب، آنذاك هب إسماعيل واقفاً من جلوسه بعيداً عن تجمع العائلة وهو يقول بأنه من منع صفية. ودُهش كلّ من كان في القاعة، ولكنهم حسبوه مازحاً، فما كان من إسماعيل إلاّ أن تقدم منهم وهو يقول:

"صفية ما عادت صغيرة. طالبتها أن تضع الحجاب، لكنها لم تستجب".

لم يستطع إبراهيم أن يفهم موقف أخيه إسماعيل إن كان جاداً في قوله أو أنه يمازح أهله، إلاّ أنه لم ينطق بكلمة بحضور والده الذي قال:

"من سمح لك بالتدخل في شؤون غيرك، ولو كانت أختك".

ولبث إسماعيل ساكناً لا يتحرك، وهو يستمع إلى والده الذي أمسك نفسه فقال بهدوء:

"أختك عائشة. ليلى زوجة إبراهيم، أليستا من المحصنات المؤمنات بالرغم عن غياب الحجاب؟".

وقال عبد القادر بعد لحظات من تأمل إسماعيل:

"الحجاب يا ولدي يمنع عقولنا عن رؤية الصواب والخطأ".

وقد دفع هذا القول بإبراهيم ليهتف إعجابًا وليصرّح بأن كلام الوالد هو الذي يليق بنا لنؤمن به، وأشعلت الحماسة الدكتور طالب فخاطب عبد القادر قائلاً:

"هي الحقيقة يا عمي. هذا ما نحتاجه إلى حمايتنا من التخلف".

وأضاف بأن شجاعة عمه تذكره بأقوال أبيه الدكتور أحمد، وتدفعه إلى الفخر بالاثنين معاً.

إسماعيل يحسّ بالحصار الذي طوقته به عائلته، فانتفض غاضباً ليهم بالمغادرة:

"لم يكفنا الحرام في دخول جهاز التلفزيون إلى البيت حتى تخرج صفية إلى الشارع سافرة".

بعد قليل لحق إبراهيم بأخيه، بينما ذهبت عائشة مع ليلى لإحضار صفية من غرفتها. وكان عبد القادر يلتفّ من حوله طفلاه جمال وزينب وهو يحتويهما بذراعيه، وما لبث لابن عائشة أن انضمّ إلى حلقة الحنان.

فشل إبراهيم في العثور على إسماعيل. فتّش كل الغرف والمربعات العلوية، بحث في الأقبية والأسطح، إلاّ انه لم يعثر له على أثر. ويبدو أن إسماعيل قد انسلّ خارجاً من باب الدار. ونجحت

عائشة بمساندة ليلى في اخراج صفية من عزلتها لتعيداها إلى اجتماع العائلة. وقد هلّل الجميع بعودة الصبية التي تزداد جمالاً وأنوثة، فما كان من صفية إلاّ أن سألت عن اسماعيل التي بدا انها ستغفر له تعسّفه، الاّ ان الحضور لزموا الصمت، فعلمت أنه غير موجود.

ويكتشف إبراهيم الذي لم تتوقف جهوده لأيام في تقصي الأسباب التي دفعت بأخيه إسماعيل إلى موقفه المتشدّد. أستاذ الديانة في الثانوية قاده إلى معرفة الأمر. كان الاستاذ قد جمع من حوله عدداً من الطلاب ليغرس في عقولهم رؤيته للدين، وفي لقاء اسبوعي في قبو جامع لم تنته أعمال البناء له، وكان حارس البناء قد جمعه مع الاستاذ تنظيم واحد هو ما سهّل لانعقاد الاجتماع الدوري.

الحيرة شتتت أفكار إبراهيم. أيخبر والده بما تسبب في سلوك إسماعيل، أم أنه يتصرّف منفرداً. وأخيراً تغلبت روح رجل الأمن القديم لتضع حداً لحيرة ابراهيم. اندفع إلى مدير التربية ليضعه في صورة ما يحدث في مدارسه من تنظيم أساتذة غلب عليهم التعصب فجرفوا معهم طلاباً أبرياء. ولم يكتف بنقل الصورة إلى المدير، بل نقلها إلى الوزارة. وسيفاجأ أستاذ الديانة بسحبه من المدرسة إلى أخرى في قرية بعيدة، فكانت لإسماعيل صدمة جعلته ينكفئ على نفسه حزيناً على مرشده الذي غاب عنه.

أخفى ابراهيم عن والده ما تعلق بالأحداث التي أوصلت إسماعيل إلى ما هو عليه، وما كان عليه الحال مع أستاذ الديانة، إلاّ أن عبد القادر لم يستطع إلاّ أن يعطي سرّه إبراهيم فقال:

"اعلم يا إبراهيم الابن والصديق، فأنا لم تكن لي رغبة في الزواج بعد المرحومة جليلة. لقد دُفعت إلى الزواج منها من أجلك أنت وعائشة. كنتما بحاجة إلى رعاية امرأة بعد رحيل أمكما الذي فجعني، فقد كانت أم الخير هي بداية النجاح لي".

وأدرك إبراهيم أن عبد القادر لديه نية الزواج من جديد، إلاّ أنه لم يفصح عنها كما يجب. قرّر أن يساعده وهو يقول:

"أنت عبد القادر الحلبي الذي امتلك الرجولة، ويحسدك الشباب على قوتك. أعطاك الله الثروة والنجاح، فما الذي يمنعك من أنيس؟"

استفسر عبد القادر عن الذي يعنيه بكلمة (أنيس)، فلم يملك الابن سوى قوله:

"الأنيس هو ما يجده الرجل في المرأة. أن يجد الرجل من يأنس إليه ويهتم لأمره".

ودار الصمت في أرجاء الغرفة. نسجت خيوطه بين الأب والابن فما عادا يتحدثان. الهاتف يرن طويلاً، فاذ أمسك عبد القادر بالسماعة يعتذر بعد قليل بحجة حضوره اجتماعاً مع آخرين. إبراهيم يتلاعب باقلام كانت على المكتب، وفجأة قال عبد القادر وكأنه يروى حكاية:

"تلقيت دعوة رجل صناعي لزيارة بيته. الرجل كما علمت فهو بحاجة إلى مساندة مالية لدعم مصنع الغزل و النسيج الذي يملكه. المشكلة لم تكن في المساندة فحسب بل في حديث هذا الرجل الذي

تساءل عن بقائي وحيداً من غير زوجه. قلت له ممازحاً اكتفيت بزوجتين، فقال ولكنهما في ذمة الله وليستا في ذمتك".

وتوقف عبد القادر وهو يحاول أنْ يقرأ في عيني إبراهيم آثار حديثه، فكانت نظرات إبراهيم تدعوه إلى المتابعة، فعاد عبد القادر إلى استكمال حكايته:

"ابنته (درة) متعلمة وقد أحسن تربيتها لتكون زوجة صالحة. هي في الثلاثين من عمرها، وأجدها مناسبة لي".

وقال عبد القادر إنَّ إشارة من الرجل الصناعي أدخلت (درة) بالقهوة التي قدمتها لي. لم أجد سوى الإعجاب بتهذيبها. وإذا ما قاطع إبراهيم والده مضيفاً إلى ما قاله (وبجمالها). نظر عبد القادر إلى إبراهيم مستطلعاً رأيه، فما كان من الابن إلاّ أن هتف بقوله:

"أنت صاحب الرأي، وأنت من يقرر، وعلينا أن نوافق".

-٢٤-

شهد (نادي حلب) مساء ذلك اليوم توافد صناعيين وتجار ورجال أعمال، وذلك لحضور تسجيل عقد عبد القادر الحلبي على ابنة سليمان الأزميرلي. كان عبد القادر يرتدي ملابس مدنية للمرة الأولى في حياته انسجاماً مع واقع النادي الذي لم يدخله من قبل، وهو الذي دُهش لاتساع المكان بأعمدته المرمرية ورسوم الحائط الزيتية. أحسّ برهبة سرعان ما تجاوزها.

انتشرت الموائد فتحلّق من حولها كبار رجال المال في المدينة. وابتدأ الاحتفال بتلاوة القرآن الكريم، ومن بعدها قام شيخ بتسجيل القِران فكتب في العقد صداق كبير قلّ مثله، والذي قُرئ على الحاضرين بإصرار الأزميرلي تفاخراً بمكانته. تناقل المدعوون فيما بينهم خبر المهر الذي حسبه الكثير منهم أن الحلبي قد هبط من السماء لإنقاذ الأزميرلي من محنته.

واتفق على يوم الزفاف، وكان مساء خميس من نهاية الصيف. أقيم في دار الأزميرلي وقد حضره عدد قليل من النسوة، ومن طرف الزوج حضرت عائشة وليلى، واقتصر الحفل على الرجال من الأقارب للأزميرلي. وكان قد اتفق على أن يصطحب الحلبي زوجته إلى الدار دون زغاريد أو صحبة، فيدخل الحي دون ضجة احتراماً لذكرى زوجتيه اللتين تعاقبتا على الدار، فخضع الأزميرلي لرغبة الحلبي.

في قاعة الاستقبال لم يكن هناك سوى عبد القادر ووالد العروس وحيدين بين النساء. وجرى توزيع شراب اللوز على الحاضرين، بينما ذهبت الأم لإحضار العروس درة. الغرفة كانت خالية ورسالة تركت على الكومودينو بالقرب من المرآة. فضّت الأم الرسالة لتقرأ سطورها:

"احببت شاباً سيسعدني. زواجي كان صفقة باعني فيها أبي لرجل عجوز لن أحبه. لقد اخترت حريتي".

وصرخت الأم مولولة، وفيما هي تخرج من غرفة ابنتها تستنجد بزوجها، كان الازميرلي يهرع مسرعاً ليسمع زوجته تهتف بصوت مبحوح:

"هربت درة.. يا ويلي من الفضيحة".

انتقل الفزع إلى الازميرلي، فكان وهو يقرأ الرسالة يشتعل بالغضب لتفلت منه صرخة مدوية، التقطها من كان في القاعة. ذاهلاً كان عبد القادر مع ابنته وكنته، فلم يكونوا بقادرين على الفهم لما كان يجري في الغرف الداخلية. تطوعت عائشة لتستفهم الأمر، فركضت في الممر. خرج الأزميرلي مسرعاً بخطواته وهو يحمل الرسالة، فوضعها بين يدي عبد القادر وهو يقول انها مسؤوليتك الآن لتعيد زوجتك الهاربة.

كان زوجاً مع وقف التنفيذ، وإذا ما قرأ الرسالة توقّف عند كلمة (الرجل العجوز). وكان يفكر إن كان أحد قد وصفه بذلك، أم أنها هي الحقيقة. وأعاد الرسالة إلى الأزميرلي دون أن يعلّق بكلمة، واستمر في حواره مع نفسه:

"أتراني ذلك الرجل العجوز، أم أنها خدعة دبّرها الأزميرلي؟".

ولم يترك للجمع أية كلمة وداع فخرج مسرعاً لتلحق به عائشة وليلى.

في تلك الليلة لم يعرف إغماضة عين. ومع ظهور الفجر خرج عبد القادر من داره، فدار في الشوارع والأزقة لتقوده قدماه إلى الخان. حكاية هرب الزوجة لن يفهمها أو هو لن يشكك في رجولته أو قدرته على إرضاء امرأة، ولن يسمح للمؤامرة التي يحتمل أنها دُبرت له. ولم يجد سوى إبراهيم يفضي له بهمه فاستدعاه على عجل.

حضر إبراهيم، قال إن ليلى أخبرته بما جرى ليل أمس، وسأل والده إن كان الحدث قد كان مكراً من الازميرلي، أم أن الرجل فاشل في ادارة أسرته كما هو في عمله. وهتف ابراهيم بقول واثق ألست المحامي الذي يضمن لك حقوقك. ويقول عبد القادر كجريح في كرامته:

"ومن الذي سيدفع عني الطعن في كبريائي؟".

ويعلن المحامي إن كان الموضوعُ موضوعَ كبرياء فقد ردّ على صدر الأزميرلي، بريئاً أو مخادعاً. قال:

"أعدك يا والدي باسترداد أي مبلغ من المال كنت قد دفعته لمساندة ذلك الصناعي. وأما ابنته فهي زوجة ناشزة لا يحق لها ما ترتب على العقد من حقوق".

وكان عبد القادر الحلبي حزيناً وهو يقول:

"هل تحولت إلى رجل ترفضه النساء؟".

وانقلب الحزن إلى غضب حمله قوله إن ابنة الأزميرلي لن تكون له في أي زمن ومكان، وقام إبراهيم من مقعده ليقترب من والده. احتضنه وهو يهمس في أذنه:

"ألم يشهد لك الجميع بالنجاح. ماضيك الوطني مشرف، ورعايتك الانسانية لعمالك. محبتك لأولادك وزوجاتك. انت يا والدي رجل حقيقي في هذا العصر".

مع مرور أيام قليلة غابت عن تفكير عبد القادر احداث تلك الليلة، ليلة هربت درة التي كانت واقعة زواجها مسجلة على الورق، فطواها. وزاد اهتمامه بالابناء الأربعة الذين يشاركونه الدار. وظلّ إسماعيل منكفئاً على ذاته قليل الكلام، وقد تجنّب الاحتكاك بأي من أفراد أسرته، إلاّ أنه استمر بالتزامه بمواعيد المدرسة والطعام. واذا ما كان لقاء الجمعة الاسبوعي تحصّن في غرفته متعللاً بالتحضير المبكر لامتحانات البكالوريا.

من قبل، كان خبر استقالة عبد الناصر بعد نكسة حزيران، الاّ أن مظاهرات الشعب المصري أعادته إلى الرئاسة بعد قليل. ولكن ما حدث بعد سنوات قليلة كاد ان يقتلع قلب الحلبي من صدره. الراديو يعلن وفاة عبد الناصر. ففي الدقائق الأولى من اعلان الخبر أضحى عبد القادر ذاهلاً وكأنما احتاج لوقت يصدق فيها سمعه، ثم بعد ذلك بلحظات متسارعة انفجر في بكاء يعجز عن إيقافه:

"لا يمكن للرئيس أنْ يموت".

واذا ما تكررت كلماته كهلوسة رجل تمزقت روحه، فإنهالم تتوقف الاّ لحظة دخول رئيس عمال مصنع العلف الذي كان يمرّ في طريقه بالغرفة، فإذا هو يسمع الحلبي ليقتحمها مستفسراً عن الأصوات غير المألوفة. صاح عبد القادر لرؤيته:

"عبد الناصر مات. الرئيس مات".

كان رئيس العمال عند الباب لا يظهر عليه أنه يفهم شيئاً، إلاّ أنه مع تكرار الخبر سقط على قدميه فساعدته يداه على الاحتماء بالحائط، فانخرط في بكاء مرير.

ساد الحزن في الخان. رجال اكفهرت وجوههم، وحجارة كابية، وما عاد يسمع للقطط الاّ المواء الذي يثير الشفقه، وسرت شائعة وصلت الخان من شوارع المدينة، وقد دفعت تلك الشائعة رجالاً اندفعوا في تظاهرة إلى مطار حلب، وكان هؤلاء يهتفون بعودة عبد الناصر الذي ستهبط طائرته في المطار. قال عبد القادر معلقاً:

"أي جنون دفع المحبين لهذا الزعيم الراحل ليفقدوا توازنهم!" .

ويوم طافت الجماهير في القاهرة تحمل نعش عبد الناصر تدور به في جوٍ من الحزن الفاجع، توافد على الخان رجال بالمئات يقدمون العزاء إلى عبد القادر الحلبي. دارت المسجلة لتبث القرآن الكريم على مدار يومين بينما تصدّر الحلبي ساحة الخان، فيأتي الرجال

ويجلسون على الكراسي المنتشرة ولا يلبثون أن يغادروا ليحلّ غيرهم في أمكنتهم. كان الحلبي واحداً ممن في المدينة فتحوا ابوابهم لتقبل العزاء بعبد الناصر، بالرغم من أن الرجل لم يكن يوماً في التنظيم الناصري الذي أعلن عن تأسيسه عقب الانفصال.

-٢٥-

حوصر الأزميرلي بدعاوٍ رفعها المحامي إبراهيم الحلبي. طالب في واحدة منها الصناعي بتسديد دين موكّله، وبأخرى على الابنة الهاربة من زوجها. الأزميرلي أحسّ بخطر اهتزاز هيبته في أوساط المال، فكان أن هرع إلى مكتب إبراهيم زائغ العينين مضطرب النفس يكاد أن لا يتمالك نفسه. خاطب المحامي راجياً منه التريث، واعداً أن يعيد ابنته فيردّها إلى زوجها، فما كان من إبراهيم إلاّ أن علّق بقوله:

"وهل تعتقد أنْ يقبل موكلي بعودة ابنتك إليه؟".

وابتدأ إبراهيم يحسّ ببراءة الأزميرلي من تهمة تآمره على والده، إلاّ أنه ظلّ مثابراً على إجراءات مواجهة الرجل في المحكمة الذي رُدّ خائباً.

وحدثت المفاجأة. أسابيع قليلة عادت درة بعدها إلى بيت أهلها ذليلة . كانت باكية بين أحضان أمها، فالشاب الذي أحبته وضّحت

بمستقبلها من أجله، خذلها فكشف عن طمعه في مصنع أبيها واذا ما تبين له وقوع الأزميرلي في الديون، صاح الحبيب في وجه درة:

"عودي إلى زوجك يا هاربة".

وتساءلت درة إن كان الحلبي سيغفر لها، فتنفجر الأم باكية تخنق الدموع كلماتها:

"ضاعت الفرصة يا درة، وضعنا نحن".

وكان الأب يراقب لقاء الابنة بأمها وهو يتمالك مشاعره فلم يظهر أي انفعال. ومع توقف بكاء المرأتين هتف الأب:

"والآن يا درة هل وجدت حلاً لهذه الكارثة؟".

وانفجر الصناعي فجأة. طالت مكابدته للغضب، ولكنه ما عاد بقادر على حبس مشاعره فقال:

"فلتتفضل ابنتنا بخبرتها وشجاعتها بإعلامنا عن طريقة معالجتها لمأساة أسرة الأزميرلي".

رافقت درة أبيها بعد يوم من عودتها. الهدف كان مكتب إبراهيم المحامي. شهد اللقاء اتفاقاً على الطلاق بعد تنازل الزوجة عن جميع حقوقها. وفي اليوم التالي حضر الأزميرلي إلى غرفة عبد القادر وبحضور ابراهيم، فاتُفق على التنازل عن حصة من المصنع لقاء الدين. وهكذا خرج الأزميرلي مهزوماً، وبقي الحلبي في غرفته فخوراً بابنه.

وما هي إلا أيام قليلة ليعود إبراهيم إلى بيته يحمل معه خبر الانتصار لوالده بعد أن أنهى رسمياً كل ماله علاقة بالزواج والمال. وكانت ليلى تستقبل زوجها بفرح الانتصار تلقت خبر نجاح إبراهيم القانوني بالتهنئة، لكنها ما لبثت أن أظهرت وجوماً لم يعهدها أحد به. سأل الزوج إن كانت تشكو من مرض، فكان أن دعته إلى الجلوس لتكون على مقعد بمواجهته. قالت ليلى:

"لم أكن يوماً أحلم برجل مثلك. أنت الزوج والصديق، وانت الحبيب قبل كل شي".

ومرت لحظات صمتها تتنازعها المخاوف من ان يكون لاعترافها أثر على إبراهيم، لكنها قالت من جديد:

"عمي أبو إبراهيم أنجب الابناء الذين يفخر بهم، وأما أنا فعجزت كزوجة عن اعطائك الابن".

وتأملها بابتسامة، وهي تكمل قولها:

"من حقك يا إبراهيم أنْ تكون لك امرأة تمنحك الابناء".

واغرورقت عيناها بدموع براقة. كانت تقول بصوت مرتعش:

"لقد خذلتك. غدرت بك يا حبيبي".

وهبّ إبراهيم واقفاً. تقدم خطوات من ليلى، وأمسك برأسها بين كفيه وأقعس. رفع وجهها فأغمضت عينيها. كان يهمس برقة عودتها للاستماع إلى عذوبتها:

"لا مفر لي من القدر المكتوب. ولكن حبي لك غلب كلّ الأقدار".

وضمّها إلى صدره فاحتضنته بذراعيها، ليبقيا ساكنين وكأنهما في صلاة تلاوتها آيات من الصمت. وقد همس في سمعها أن أخوته هم أبناء له ولها، فإسماعيل وصفية وجمال وزينب، ولا أستثني الدكتورة عائشة، بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم لتخطي مصاعب الحياة. وقال إبراهيم بخرم المحبّ:

"أنا وأنت سنكون سنداً دائماً لهم".

وقد غالب نفسه محتفظاً بالسر الذي لم يفض به لأحد، مكتفياً بعذاب الضمير لأنه أخفى عن ليلى حقيقة عدم قدرته على الإنجاب وراضياً عن نفسه أنه مخلص في حبه لزوجته ليلى.

مساء ذلك اليوم، أثار اهتمام عبد القادر حديث رئيس عمال مصنع العلف. كان قد دخل عليه في الوقت الذي انتهى عمله. رحّب عبد القادر به وطلب ان يأخذ له مقعداً، وجعل يسأل عن الأحوال. كان المفضل عنده، وكثيراً ما قال عنه إنّ اسمه يطابق سلوك حياته. هو (صادق) الميكانيكي والكهربائي والاداري، وهو كذلك يتسم بالصدق والامانة. وقال صادق إن العمل في المصنع يسير كأفضل ما يكون، واضاف:

"عرفتك منذ سنين، وكنت خير ربّ عمل. الرجال في المصنع وفي الخان لا يلقون منك سوى الرعاية والتعاطف والاحترام، وانا بالرغم من تجاوزي للستين من العمر لا أحسّ بك إلا أباً ورمزاً".

وتوقف صادق عن الاستمرار في الكلام، وكأنه يحتجز غيره فلا يستطيع النطق به. كان عبد القادر يحترم انفعاله الصادق، ولكن الرجل عاد إلى التدفق بالقول:

"خديجة ابنتي رفضت منذ زمن ان تترك امها المريضة. خديجة فتاة صالحة وجميلة وقد امتنعت عن الزواج لتبقى لترعى أمها. زوجتي ماتت منذ أسابيع".

انتفض عبد القادر ليصيح بانه لم يعلم، وكان عليه واجب العزاء، إلاّ أن الرجل أكمل قوله هادئاً:

"ليرحمها الله فقد كان ميؤوساً من حالتها. وقد فكرت طويلاً بمكافأة خديجه على صبرها وعنايتها بأمها، فلم أجد سواك يا سيد عبد القادر".

وهنا ملأت الدهشة وجه الحلبي، فهو لم يكن قادراً على فهم قول رئيس العمال. أكمل صادق:

"خديجة مؤهلة لتكون زوجة لك يا سيدي.أتمنى من قلبي المحب لك ان تفكر. أما أنا فسأعيش مع أختي الأرملة الوحيدة".

كما حدث له مع الحاج الذي قدّم له ابنة أخته أم الخير على طبق السعادة، يتكرر الموقف وتستكمل الدهشة ألوانها. وجد عبد القادر المسحور يقول:

"هل أستطيع أن أسمع بأذني موافقة ابنتك".

"هذا من حقك يازين الرجال".

هكذا قال صادق وهو يستأذن بالمغادرة.

-٢٦-

يوم الكشف عن حقيقة الأمر، مساء اصطحب عبد القادر ابنه ابراهيم حافظ أسراره والمحامي الذي استردّ له حقوقه، فتوّجها إلى مكان اللقاء. وكان بيت صادق الذي تمّ التعرف عليه بصعوبه، قد تحول إلى ساحة من حرارة الترحيب التي قابل صاحب البيت ضيفه بها. كانت الصالة الصغيرة قد توزعت فيها أصص النباتات المنزلية، وتوسطتها شجرة (أذن الفيل) التي ضمّها برميل لُوّن بالأخضر، كما عُلقت سجادتان على الحائط لتشكلا بالزخارف خلفية لهذه الشجيرة. وتوزعت الإضاءة على السقف والجدران، فكان المنزل بالرغم من وقوعه في حي شعبي وبساطة مفروشاته يشير إلى غير ما هو مألوف في البيوت البسيطة. أشاد الحلبي بالحس المرهف لرئيس العمال، فما كان من صادق إلاّ أن اعترف بلمسة ابنته لما يمكن رؤيته.

لا بدّ أنها (خديجة) تلك التي دخلت عليهم تحمل صينية القهوة، فوقف الرجال الثلاثة لها، ليقدمها إلى عبد القادر وابنه. كانت بثوب الحزن الأسود، ولكن وجهها المشرق وشعرها المعقود خلف رأسها

وابتسامتها المرحبة، ساهمت في إظهار بريق عينيها. وبدا لعبد القادر ان ثوبها الذي امتلأ بجسدها هو جزء من الأناقة البسيطة التي اتسم بها المكان.

أفسح الأب لابنته فسحة للجلوس بقربه، بينما احتلّ عبد القادر المقعد المجاور لهما وقد غرق في صمته. رحبت خديجة بالضيفين، فرد عليها عبد القادر بهمس وإيماءة من رأسه، إلاّ أنها قالت بصورة مباغتة:

"اقترب عمري من الأربعين، ولكني في الحقيقة مازلت في منتصف الثلاثينيات. وتمنيت ذات يوم أن أنتسب إلى الجامعة لكنني لم أستطع ترك أمي وحيده في مرضها الذي امتد لسنوات طويلة. كان لا بدّ لي من ردّ الدين لها".

تبادل إبراهيم النظرة الخاطفة مع والده، وكأنهما لم يستمعا إلى امرأة مثلها من قبل. وكان عبد القادر يصغى بدهشة إلى خديجة التي عادت إلى الحديث بجملة واحدة:

"رحم الله أمي، وليرحم زوجتيك".

احتار عبد القادر وهو يساءل نفسه ان كان يحتمل جرأة هذه المرأة، أم أنه بحاجة إلى واحدة مثلها. بعد قليل اخترق صمت البقية صوت خديجة يقول:

"تحدّث والدي طويلاً عنك. كانت كلماته تحمل الإعجاب والمحبة لك، قد رسم لك صورة الرجل القوي، وكانت لك أكثر من زعيم".

طالما أحس عبد القادر بقوته، إلاّ أنه أدرك بأن خديجة تتفوق عليه، وقال لنفسه:

"جئت تدفعني رغبة لمعرفة كل شيء عن خديجة، فإذا هي لا تخفي أي شيء. أيمكن للزمن الحلبي ان يشهد حالة كهذه؟".

إبراهيم لم ينطق بكلمة، وهو من مكانه يراقب ويستمع، وكان يحمل إعجاباً لخديجة لا حدود له. بينما كان صادق يبتسم في سره لشجاعة ابنته في صراحتها المعهودة، وأما عبد القادر فكان يحاول أن يتخذ موقفاً يستمدّ من جرأة خديجة، فقال:

"عندي ستة أولاد، وابراهيم هذا أولهم. أقترب من السبعين واحتمالاً أن أكون قد تجاوزت منتصف الستينيات. لا أشكو من علة أو ما يشبه المرض، وأمضي أيامي في إدارة أعمال الخان وغيرها. أستمع إلى الأخبار وأقرأ كتباً أعوض بها عن التعليم الذي حرمت منه".

واستدرك بالقول إن هذا كل ما عندي، لكنه سمعها تقول:

"أنت رجل صالح كما أجمع كل الناس".

عينا صادق الأب كانتا تقولان بلغة فهمها عبد القادر:

"ها أنت قد سمعت موافقتها".

التصق عبد القادر بمقعده فلم يأت بحركة، فوقفت خديجة تراقبها العيون وهي تخرج من الصالة. يقول صادق إن خديجة ستعود، وقد

فعلت فعادت حاملة كؤوس الليمون. لم تنطق بكلمة وكذلك فعل البقية. قال عبد القادر مثنياً على الشراب:

"لم يكن هذا وقت الليمون يا آنسة خديجة".

"احتفظت به في الثلاجة أيام موسمه".

هكذا قالت خديجة. واذا ما توقف الحديث لفترة كانت العيون تسرق النظرات من بعضهم البعض، هب عبد القادر ليستأذن بالمغادرة، وما لبث ابراهيم ان لحق به. لحظة الوداع كانت مشحونة بحرارة التساؤل لدى الجميع.

إبراهيم هو الذي قاد السيارة، بينما جلس عبد القادر قربه يخيم عليه الصمت. في الطريق سأل عبد القادر:

"ما رأيك في كل ما شاهدته وسمعته؟".

"لم يسبق لي ان رأيت امرأة مثل خديجة"

وأضاف إبراهيم بالقول إن ما يحير فيها شجاعة لا تعرفها عند النساء. واستدرك بالقول:

"قرأنا عن أيام العرب منذ قرون أن النساء كن يخترن الأزواج".

وكان عبد القادر يحادث نفسه بصوت مسموع:

"أعلم أن صادق رئيس عمال المصنع يتسم بالصدق وحسن الإدارة، ويبدو أن ابنته قد اكتسبت صفاته، بل كانت نسخة محسنة عنه. أتراها كسرت القواعد المألوفة!" .

والتفت عبد القادر إلى ابنه يسأله بغتة:

"أليست لإبراهيم رغبة في أنْ يكون له ولد؟".

واذا ما فوجئ الابن بالسؤال الذي خرج عن سياق الحديث، ابتسم قائلاً:

"ألاّ يكفي مارزقت أنت من أبناء".

وعاد عبد القادر إلى موضوعه الذي شغله فقال:

"هي امرأة قوية. ابنة صادق فتاة تعرف ما تريد".

ورجع الصمت إلى بدايته، فكان الواحد منهما يعود إلى نفسه يحادثها.

شُغل عبد القادر والعائلة بالمشكلة التي أثارها إسماعيل. هو قد نجح في امتحانات الشهادة الثانوية، إلاّ أنه قرّر عدم الالتحاق بالجامعة، متخذاً قراره الالتحاق بالخدمة العسكرية الالزامية. لم يفلح الوالد في إقناعه، كما فشل ابراهيم وعائشة في تزيين الدراسة في الجامعة. وهما يقدمان له مغريات العلم من تقدم في المجتمع واتساع المعرفة. وخيّر إسماعيل بين جامعة حلب أو أيه واحدة أخرى في الخارج، إلاّ أنه ظلّ متمسكاً بموقفه في الخدمة العسكرية. وقال عبد القادر غاضباً لندع الولد العنيد يختار ما يريد. وكانت صفيه تستعدّ لامتحانات البكالوريا بعد سنة، فراهن والدها عليها تعويضاً عن كسر حلقة الأبناء في إكمال التعليم الجامعي، وهو المحروم من كل تعليم.

ومرت فترة من التأرجح في اتخاذ قرار بين تردد وقبول، حسمه الحلبي بإقدامه على فكرة الزواج من خديجة. اتفق مع صادق على موعد محدد، إلاّ أن الإجراءات سارت في اتجاه عقد القران في المحكمة الشرعية مراعاة للزوجة المتوفاة. وكانت في حقيقة الأمر تلبية لرغبة خديجة، وأَكبَر الحلبي في المرأة التي حفظت ذكرى أمها وراعت كذلك مشاعر أبناء زوجه الراحلة جليلة.

أصرت خديجة على المثول أمام القاضي، رافضة أن يكون والدها وكيلاً لها في عقد القران. وارتسمت الدهشة على وجه عبد القادر وابنه وصهره، بينما وقر في ذهن صادق أن ابنته قد ذهبت بعيداً بقوة شخصيتها. الزوجان يستمعان الى قراءة كاتب المحكمة، فاذا وصل إلى ذكر المهر قالت خديجة بثقة أن موضوع المقدّم والمؤخّر لا يعنيها في شيء، ليصاب والدها بالصدمة، كما أن الزوج والشهود لم يستطيعوا فهم تلك المرأة. وتوقف الكاتب عن التسجيل بانتظار ان يقول عبد القادر شيئاً. خرج الزوج من دهشته ليطلب أن يسجّل أعلى رقم مرّ على سجلات الزواج الحلبي. التعجب يسود وعلامات الاستفهام ترسم آثارها على وجه القاضي، بينما إبراهيم فقد أدرك ان والده بات مقتنعاً بل مسحوراً بهذه المرأة، وكانت خديجة لا تبدي أي انفعال. كانت المحكمة قد شهدت أغرب قران يحدث في مقرها.

موكب العرس في الزقاق. سارع عبد القادر إلى باب الدار ليستقبل عروسه مع الموكب الصغير الذي ضم والدها وابراهيم والدكتور طالب. دخل الموكب ليواجَه باستقبال ترحيبي. كانت تعاليم عبد القادر قد منعت الزغاريد، فاكتفى أفراد العائلة بالوقوف صفاً واحداً في صحن الدار يسلمون على العروس. أقدمت خديجة على تقبيل كل فرد، وأما إسماعيل فمدّ ذراعه مصافحاً على استحياء، وما لبث ان ابتعد مختفياً.

صيف الدار كان منعشاً، وبالرغم من شمس الظهيرة فقد كانت أشجار النارنج مع مظلّة الكرمة والياسمين والفل والتمرحنة، هي التي منحت الطمأنينة لأجساد الجميع. وامتدت مائدة الطعام في الليوان ليقوم رجلان استُقدِما من مطعم معروف بالخدمة، بينما (فاته) تزودهما بصحون الطعام المختلفة . الزوجان على رأس المائدة، والجميع على الطرفين. وقف إبراهيم في محاولة للفت الانظار إليه ليقول:

"أريد ان أرحب أولاً بالعروس خديجة، وأقول لك أهلاً بك في العائلة".

الجميع يصفق، وعبد القادر ينظر بإعجاب إلى لباقة ابنه، ويقول إبراهيم:

"خديجة أصبحت زوجة أبي، واقول إنها ستكون أختاً لنا. وأودّ أن أفشي سرّ هذه الاسرة التي تعيش في بيت قديم وفي حي أقدم، لكن أهلها من جماعة العصر التي قد تسبق في مفاهيمها معظم أهل المدينة. وها هي خديجة الزوجة والأخت قد جاءت لتزيد على أسرة عبد القادر الحلبي قيمة وتمنحها المحبة والشجاعة على طريقتها".

توقف إبراهيم عن خطابه، بقي صامتاً لحظات ليجلس. كانت الأنظار ترمقه بإعجاب، فما أن سكت عن الكلام حتى اشتعلت الأكفّ بالتصفيق.

مالت خديجة على زوجها توشوشه، فكان الجميع يتمنى أن يصل إليه، وهتف صادق ممازحاً أن تبادل الأسرار بين اثنين غير مسموح به على مائدة الطعام، وعلّق عبد القادر على قوله بأن رقابة والد العروس ليست مستحبة. وسادت روح المحبة فكان يوماً مسح فترة من الحزن والقلق.

ولم يكن مألوفاً بداية الزواج نهاراً، لكن الزوجين دخلا الغرفة فأقفلِ الباب. وكان أول الحديث في طلب عبد القادر ان تعيد عليه وشوشتها لأنه لم يستمع اليها جيداً، ابتسمت وهي تقول بطريقة إملائية:

"ما سمعته من ابراهيم كان مؤثراً، أنت أب أحسن رعاية أبنائه".

فما كان من عبد القادر إلاّ أنْ قال:

"وأرجو ان أكون زوجاً بما يليق بك".

فعادت الى الوشوشة التي كانت واضحة في سمع الزوج:

"انا التي اسعى حقيقة كي اكون زوجة تليق بك".

واكتمل اللقاء بين الزوجين، وهما اللذان كانا يحلمان به شوقاً منذ بداية الاحتفال ظهراً.

عن الخان غاب عبد القادر الحلبي ليومين بتمامهما كما لم يحدث منذ سنوات. العاملون تساءلوا فاذا حضر دهشوا. لم يكن الرجل ذلك المهيب بعباءته الصوفية شتاء والحريرية صيفاً، كان السيد الانيق المتفتح على المرح وممازحة عماله، شبابه يعود به إلى قامة مشدودة، وبدلته الصيفية البيضاء المائلة الى الرمادي وكأنه نجم سينمائي. وتقاطر العمال بعد قليل لتحية العريس الذي اخفى زواجه عنهم، كما ان رئيس المصنع لم يعلن عن كونه والد العروس. وامتلأت الغرفة بالمباركين، فأعلن عبد القادر رداً على تحية العاملين بتوزيع أجر أسبوع عليهم احتفالاً بالزواج. وقيل بعد ذلك إن الرجل قد تغير، إلاّ أن طيبته مازالت تشع.

وسرعان ما التفّت صفية وزينب حول خديجة، فكأنها بحديثها الذكي وتعاملها الرقيق اجتذبت الفتاتين إليها، ودفعت جمال إلى لوحة الشطرنج كي يتعلم تحريك احجارها فأتقن اللعبة. تحولت صفية الصبية الجميلة إلى صديقة فكانتا تتبادلان الأسرار الصغيرة، واعتنت

بزينب تضفر لها شعرها وتشاركها الحكايات، واما اسماعيل الذي قابلته مصادفة فلم تملك له سوى السلامة وهو يستعد للالتحاق بخدمة الجيش. وفي الليالي كانت تغمر زوجها بحب لا يذكر أن له شبيهاً من قبل. قالت خديجة ذات مساء ان صديقة لها، منذ أيام المدرسة وقد باتت أستاذة جامعية في كلية التجارة، قد أخبرتها بقدوم فرقة مسرحية مصرية ستعرض غداً على خشبه اعدّت في مجمع رياضي، دعتها مع زوجها. ولم يكن عبد القادر قد حضر عرضاً مسرحياً إلاّ أنه لم يتردد لحظة بقبول الدعوة.

شهدت الفرقة ازدحاماً في قاعة العرض، وما أن أطفئت الأنوار وانفرج الستار عن الخشبة، حتى أمسك عبد القادر بكف زوجته التي تمايلت مع موسيقا المقدمة التي رافقتها فرقة راقصة، لتتلاقى عيون الزوجين وقد حملت امتنان عبد القادر لخديجة. أحداث المسرحية تمشي قدماً، فيعبّر همساً أن مثل هذا لم يشهده من قبل الاّ في مرات عبر شاشة التلفزيون، وأحسّ عبد القادر أن خطوة جديدة يتقدم بها في حياته، والفضل لخديجة التي دخلت فجأة مسيرة عمره. ويقول لها في طريق العودة:

"لا أعتقد يا خديجة أن الحياة من دونك، تساوي شيئاً".

وكان عبد القادر يعني ما يقول، وأما خديجة بصمتها فتحس بالسعادة.

شهدت ملامح الخريف برودة الصباح في الدار، فتدثرت خديجة بشال صوفي، وكانت تشرب القهوة مع زوجها في الليوان، وبينما كان عبد القادر يستعد للخروج، همست في أذنه وهو يقبلها أنها حامل. توقف الوداع الصباحي، ومال إلى الوراء يتأملها فتملأ عينيه الدهشة التي غرقت في التعجب. وما لبث أن أسرع وهو يقودها الى الجلوس من جديد. ركع على ركبتيه ليقول إنه لا يسمح لها بالتعب، فلا تفعل شيئاً سوى الراحة. ابتسمت خديجة وهي تقول إن من يسمعك يظن أنك لم تعرف الأبناء من قبل، فإذا به يهتف:

"ولكني لم أعرف مثلك من قبل يا حبيبتي".

وكانت تسمعه لأول مرة منذ زواجها به يخاطبها بالحبيبة، آنذاك خطفت من كفه قبلة، ليبادلها بأخرى وهو يطبعها بعمق غارقاً بوجهه في بطن كفها. جعل يتمتم كشاب عاشق:

"شكراً لله أني عرفت امرأة اسمها خديجة".

ومع مرور الأيام كان عبد القادر قبل خروجه من الدار يسأل عن وضع الجنين الذي تحمله، فتجيب خديجة بأن الأمانة التي وضعتها في أحشائي مازالت في الحفظ والصون. كان حديثهما كأغنية يشارك فيها اثنان، فيتلذذان بأدائها.

واكفهرّ خريف تشرين بأخبار هجوم الجيش السوري على إسرائيل، متماشية مع أنباء الجيش المصري وقد تخطى قناة السويس

بجسر اخترعته عبقرية هندسية. كانت أخبار الراديو التي يستمع إليها عبد القادر قد اعادت اليه الأمل في صنع ما يعيد الكرامة إلى الامة العربية. خرج الرجل من غرفته ليهتف في ساحة الخان:

"اسمعوا يا رجال، جيشنا يهاجم العدو إسرائيل، النصر قادم".

-٢٨-

نيران الحرب تتوقف، وتبدأ المفاوضات بين أطراف القتال. وكان اسم المجند إسماعيل الحلبي على قائمة المفقودين فنزل الغم على الحلبي وعائلته. وظهر رئيس البلاد على شاشة التلفزيون وهو يرفع العلم السوري على أرض القنيطرة، بينما احتفظت إسرائيل بمرتفعات الجولان. بقي إسماعيل مفقوداً تتطلع الأنظار إلى عودته، وكانت عين عبد القادر على بطن خديجة يربط بين ولادتها وعودة الابن الضائع الذي ظلت غرفته تغرق في صمتها، فلا تتكلم سوى صورته التي أطرّها الأب، ليقف الاب أمامها مساء كل يوم لدقائق، يحادثها فيسمعها وكأنها تقول سأكون في الدار غداً. ولكن الانتظار يطول مع تعاقب الأيام ببطء قاتل.

في غرفة الخان اجتمع الأب وابنه بعدد من المعارف والاصدقاء. كان ابراهيم ينتظر من والده أن يبدأ الحديث، لكن الاستسلام للحزن

منع الاثنين من أي كلام. بعد قليل هتف ابراهيم وكأنه وجد المدخل الى فكرة ظنّ أنه يكتشفها:

"ما دامت تقارير الجيش لم تشر الى وفاة، فهذا يعني أن أخي اسماعيل حي يرزق".

فأيده عبد القادر بهز رأسه ليؤكد على قوله، وعاد إبراهيم ليقول من جديد:

"هناك احتمال أن يكون إسماعيل قد فقد الذاكرة لسبب ما، فهام على وجهه في أرض المعركة".

آنذاك علق الاب بصوت واهن:

"هل تتصور يا ولدي أن الجيش عاجز عن العثور على جندي؟".

وكان ابراهيم يخشى أن يصرّح بشيء عن وقوع إسماعيل في الأسر، إلاّ أنه لم يمنع نفسه من الإفصاح عن الفكرة ليقول إن كان إسماعيل قد وقع في الاسر ولا تعلم إدارة الجيش عن ذلك، فاشتعل ذعر عبد القادر ليقول:

"وهل العدو لا يتورع عن قتل أسرانا؟".

بالرغم من اقتراب موعد الولادة، فإن خديجة كانت تحرص على مراعاة القلق الدائم لزوجها، لذا اتفقت مع الدكتورة عائشة وليلى زوجة إبراهيم كي ترافقاها لحظة اقتراب المخاض إلى مشفى التوليد، لتفادي إزعاج عبد القادر. وفي عصر ذلك اليوم

الموعود هرعت المرافقتان، وكانت صفية معهما، للانتقال إلى مرافقة الحامل على عجل. وُسِّدت خديجة على الفراش بانتظار الطبيب الذي صادف انشغاله بولادة امرأة اخرى. واجتمعت النسوة الثلاث مع الممرضه حول السرير، فازداد القلق مع تزايد لحظات الطلق. وما كان من ليلى الاّ ان سارعت مستنجدة بالطبيب الذي فرغ بعد قليل من مهمته، و ما إن دخل غرفة خديجة حتى فوجئ بقدوم الطفل الذي أطل على الدنيا.

خرجت خديجة من المشفى مع زوجها وهي تحمل وليدها. حملتهم السيارة باتجاه الدار. وفي الطريق عاتبها عبد القادر بمحبة ممازحة وهو يقول ألا أستحق أن أحضر قدوم ابني، فردت بقولها إنها تركته لأعماله وهمومه وان عائشة وليلى كانتا تمثلانه. وكان حافلاً استقبال الجميع للطفل وهم يجتمعون حوله وحول أمه ويتفحصون القادم الجميل. هتف عبد القادر بهم:

"رحّبوا يا أهل الدار بضيفنا القاسم".

وتساءل الأخوة عن هذا الاسم الذي أُطلق على الرضيع، ففوتت (فاته) على الأب فرصة الجواب بزغرودة، ولكن عبد القادر أشار عليها بالصمت وهو يقول:

"لا يحتمل ابننا القاسم أية ضجة".

في المساء، اجتمعت العائلة حول فراش خديجة وهي تحتضن ابنها. توالى الكبار والصغار على غمر لفافة القاسم بالهدايا الذهبية

التي يشبكونها بالدبابيس. وكانت عادة مألوفة لدى عائلات كثيرة وقد تفنن بصناعتها صيّاغ حلب. (ما شاء الله) و (حمداً لله) و (قل هو الله أحد) و (عين الحسود فيها عود)، كانت الهدايا قد اشتراها عبد القادر ليقدمها الأبناء، بينما هدية عائشة مع زوجها طالب فكانت عقداً طوقت عنق خديجة، ولكن إبراهيم التي قدمت زوجه ليلى سواراً مطعّماً بحجرة ياقوت، فقد قال:

"تعوّد الناس على مناداة الوالد (أبو إبراهيم)، أما أنا فسأتنازل مؤقتاً لمناداته بأبي القاسم، وأعود بعد سنين لأستعيد الاسم القديم"

فلم يتمالك الاب نفسه فذرف دمعة سرعان ما مسحها بكفه، وكانت خديجة تقول:

"إبراهيم أخي، ليلى وعائشة وصفية وكلّ العائلة لا يرعانا سوى رجل واحد اسمه عبد القادر".

وذات يوم، تلقى إبراهيم مكالمة من مساعد في الشرطة الجنائية، ليشير فيها إلى وجود شاب يدعى جمال وهو يقول إن المحامي إبراهيم الحلبي قريبه. وهرع مسرعاً إلى مبنى الشرطة غير مصدّق بأن أخاه الذي لم يتجاوز السادسة عشر من عمره قد يرتكب خطأ ما ليُحجز في مكان كهذا. قابل إبراهيم المساعد طالباً منه معرفة المحتجز وما إذا كانت له علاقة به، فقال:

"الشاب اسمه جمال الحلبي، والده عبد القادر".

استدعي جمال من القبو، وإذا بإبراهيم يدهشه لقاء أخيه منكس الرأس، وكانت عيناه لا تستطيعان النظر إلى إبراهيم. وتمالك المحامي نفسه فسأل المساعد عن الجرم المنسوب للشاب، فقال الشرطي متلذذاً بوصف الواقعة:

"تعاطي المخدرات، فقد دهمت الدورية مجموعة شباب في بيت أحدهم. وهكذا سيقوا الى الجنائية بتهمة الجرم الموصوف".

واقترب المساعد هامساً في أذن إإبراهيم:

"الشاب حدَث، وقد يتفهم حضرة العقيد رئيس الجنائية هذا الأمر".

وأدرك ابراهيم بحسّه كمحام أن الحلّ لهذه المشكلة بيد هذا المساعد. سأله إن كانت الجنائية قد نظمت تهمة بحق جمال. فكان الجواب:

"الأمر يتعلق بك يا أستاذ إبراهيم".

ابتسم المحامي وهو يدس في درج مكتب المساعد مبلغاً من المال، فما كان من صاحب الدرج إلاّ أن ابتسم.

خرج الأخوان من المبنى. إبراهيم يقود السيارة بهدوء، وأما جمال فكان يعالج صمته بالقلق. وتوقف السير عند الضوء الاحمر وعنده سأل ابراهيم:

"ألاّ يُسمح لي بمعرفة الحكاية.. كل الحكاية؟".

تخلص جمال بعد قليل من صمته، فكان يتدفق بالحديث:

"لم يكن هناك حكاية ولا رواية. كان رفيق لي جمعني مع جماعة من أصدقائه. فوجئت بهم يدخنون السجائر و أنا لم أعرف التدخين من قبل. عرض علي أحدهم سيجارة فرفضت، وطرق الباب بعد قليل ليدخل غرباء كشفوا عن أنفسهم بأنهم شرطة الجنائية وأعلنوا عن إلقاء القبض علينا بتهمة تعاطي المخدرات. عرف أحدهم وهو ذلك المساعد بأني ابن عبد القادر الحلبي وأخي المحامي ابراهيم، وهكذا سيق بنا إلى قبو النظارة".

وسكت جمال، بينما تساءل إبراهيم إن كان يعلم شيئاً عما تحتويه السجائر، فقال جمال ببراءة:

"وهل السجائر تعني المخدرات؟".

واكتشف إبراهيم ما رسم لعائلة جمال ليكون فخاً، إلاّ أنه تجاوز المكيدة بالمال.

-٢٩-

صفية التي حصلت سابقاً على الشهادة الثانوية، كانت تتمنى لو أنها تدرس في كلية الطب كأختها عائشة، إلاّ أن الطموح كان عائقه العلامات غير المؤهلة، لذا عقد اجتماع عائلي خيّرها عبد القادر فيه لتنتقي دراسة ما تريد. اقترح إبراهيم دراسة الأدب الإنكليزي لميلها إلى اللغات فساندت عائشة هذا الرأي، بينما انبرت خديجة بقولها إن

أحداً من أسرة عبد القادر لم يتقدم لمساعدة والده في أعماله، واقترحت على صفية الانتساب إلى كلية التجارة لتكون ذات يوم المعين له في اعمال الخان والشراكة في معمل الأزميرلي. ويومها نظرت صفية بإعجاب إلى زوجة ابيها:

"موافقة على الانتساب لكلية التجارة، شريطة أن أساعد بابا منذ الآن".

واما ليلى فلم تنقطع عن الحضور الى الدار لأكثر من مرة في الأسبوع، لتضمّ القاسم الى صدرها، تلاعبه وتناغيه. يبتسم لها إذا حضرت ويبكي إذا غادرت. تسألها خديجة ذات مرة:

"إذا أنت تحبين الاطفال، لم تأخرت هكذا؟".

"فتجيب بأن عمي ينجب الأطفال، وأنا وإبراهيم نحبهم".

وتفتحت أنوثة زينب باكراً، فثارت مخاوف الجميع. وهكذا تحول جمال أحياناً إلى مرافقتها في الذهاب والإياب، وتارة عبد القادر يصطحبها أو واحد من عمال الخان. كانت زينب تبدو في العشرين من عمرها بالرغم من صغر سنها. هي الجميلة الممشوقة القوام تلاحقها العيون مسحورة بجسدها وشعرها المتناثر على الجبين. وأما في مدرستها فقد أثارت غيرة مدرسات فيها وكثيرات من الزميلات. وحدث ذات يوم أن رجلاً زار عبد القادر في غرفة الخان، ليفاجأ الأب بطلب الزائر. كان الرجل الذي قدّم نفسه بأنه تاجر أقمشة في سوق التلل، يطلب القرب منه في ابنته. قال الحلبي:

"صفية مازالت طالبة في الجامعة، وهي تريد أن تكمل تعليمها".

فصحح الرجل اسم الفتاة ليقول المحروسة اسمها زينب وليس صفية. ذهل الحلبي وهو يقول:

"زينب! زينب فتاة لم تبلغ بعد الخامسة عشر من عمرها".

وقال من جديد أيعقل أن ابنتي الصغيرة مؤهلة لتكون زوجة لواحد من أولادك. فقال الرجل متباهياً:

"أطلبها لنفسي، وأنا أهلٌ لها شباباً ومالاً".

وكان الاستغراب الغاضب يدور في روح عبد القادر الذي أمسك نفسه ليقول:

"تطلبها لنفسك يا رجل؟ انت تصلح أباً لها".

فقال الرجل بعد صبر تمسك به:

"ألم تكن آخر زوجاتك في عمر ابنة لك؟"

خطف عبد القادر صبر الرجل ليرميه وراءه، وهب واقفاً وهو يضرب بالهدوء عرض الحائط:

"استقبلتك. استمعت إليك. والآن حان وقت المقابلة لتنتهي".

قال الرجل وهو يضع ابتسامة صفراء على شفتيه قبل ان يغادر الغرفة:

"خاب ظني بك. أنت تضيّع فرصة على ابنتك".

كظم عبد القادر غيظاً كاد أن ينفجر، وحوّله إلى أسنانه التي أطبق عليها بعنف. واذ بقي وحيداً رددت الجدران صياحه وهو يردد (أي جنون)، ليكررها بجنون.

حمل الحلبي همه مساء ومضى. دخل الدار ليتوجه متسللاً إلى غرفة زينب، فوجدها منكبّة على مكتبها تقرأ. وقف يتأملها، وبعد فترة تنبهت الى وجوده فهتفت ترحب به، آنذاك هداه الموقف الى السؤال عن دراستها واستعدادها لامتحان (الكفاءة)، فقالت:

"بناتك لا خوف عليهن، ولن أكون إلاّ كعائشة وصفية".

فمال عليها يقبلها من رأسها، ويغادر دون كلمة.

استقبلته خديجة بابتسامتها المرحبة أبداً. كان القاسم نائماً، وأما الأب فلم يكن على عادته وهو يشتكي بقوله ان زينب بجمالها باتت مشكلة، فتساءلت الزوجة مستنكرة:

"وهل جمال الصبية بات مشكلة؟".

كانت كلماتها مشحونة بغضب مكبوت، فلزم الصمت، إلاّ أن خديجة أحست بخطأ لم ترتكبه من قبل، وحاولت أنْ تعود إلى الطبيعة السمحة فقالت ممازحة لتشتت الغيوم التي خيمت:

"بعد ان نطق القاسم بكلمة ماما، نجح في نطقه لكلمة مزدوجه هي بابا قادر. اتراه يعتبر نفسه صديقاً لك؟".

اقتربت خديجة من زوجها لتقول بجدية وهي تجلس قربه على الكنبة:

"جميع ابنائك يحبونك أباً وصديقاً، واتمنى كما كنت معي أن أبقى لك صندوق أسرار لأني أحبك".

وتساءلت عن الذي يخفيه عنها، فما كان من عبد القادر إلاّ أن حكى لها ما حدث مع الرجل بائع الأقمشة، وتوقف عن تدفقه في ذكر تلك التفاصيل، ليقول بحذر:

"هل شكل لك فارق السن بيني وبينك أية عقبة في اتخاذ قرارك؟".

كانت أمنيتها في أن تحتضن زوجها، ولكنها لم تفعل وقالت:

"ما كنت أتصور زوجاً لي غيرك، ويبدو أن انتظاري الذي طال قد كوفئت عليه. سنّك حكمة، ورجولتك شباب تحسد عليه. وأما حبيبتنا زينب فلها حقّ في التعليم ولا يعني أن في جمالها فرصة لمنتهزي الفرص. لك الحق أن تحميها وأنت من يحمينا".

وكانت كلماتها قد مدّت عبد القادر بدم الشباب، فأحس بأنه يعود الى أيام البندقية في جبل الزاوية، ويتذكر زوجتيه الراحلتين وهو يتطلع بإعجاب إلى خديجة وكأنها بداية لحياة مختلفة بالرغم من بلوغه السبعين. وقالت خديجة:

"الأعشاب والازهار نباتات موسمية، أما أنت فتشبه شجرة السنديان بقوتها، بل أنت السنديان نفسه".

بعد سنوات بطيئة من عذاب الحلبي الخفي، شوهد إسماعيل المفقود وفقا للوائح الجيش. قيل إنه في قرية لبنانية قرب الحدود. وقد أقسم رجل، كان يتردد على الخان منذ زمن، لعبد القادر بأنّ ما رآه يؤكد على وجود إسماعيل ملتحياً. تيقظ الحنين عند الأب، الاّ أنه تساءل عن اليقين في صدق الخبر، فما كان من الرجل الذي يعمل في تهريب الأدوية إلا أنه قال:

"كل ما أعرفه من أهل القرية بأن شاباً من مدينة حلب قد لجأ إليهم لوقوعه في حب فتاة يحتمل أنه تزوجها. وأقسم أني يوم لمحته عرفت أني رأيته ذات يوم، وأنه إسماعيل ابنك".

وظل الحلبي في استماعه لأقوال الرجل حبيس دائرة الشك، وإن كان الأب داخل عبد القادر مال الى بقاء ابنه على قيد الحياة. قال عبد القادر:

"أتراك لمحته، أم أنك حادثته وجها لوجه؟".

"أقول إني لمحته فعرفته. وما دام الشاب من حلب فهو اسماعيل. رجل مثلي لا يمكن أن يخطئ في تقديره. هو ابنك وأقسم على ذلك".

هكذا جاء التأكيد من الرجل، لكن الحلبي قال لنفسه:

"إذا كان هو إسماعيل، فلم لم يتصل بي أو بأحد من أهله؟".

شكر للرجل اهتمامه، إلاّ أنه احتفظ بشكوك الاحتمالات لنفسه.

وما هي إلاّ أيام قليلة تمرّ على اللقاء مع الرجل، والذي أخفاه عن الأسرة بمن فيهم إبراهيم، حتى انتشر في المدينة خبر اغتيال حقوقي وأستاذ جامعي في دمشق. قيل ان متطرفي جماعة اسلامية هم من أطلقوا النار فأردوه قتيلاً أثناء خروجه صباحاً من منزله. وذهب آخرون الى رأي مفاده أن الشهيد بصفته محامياً خسر دعوى موكّله فكان نصيبه الإعدام للموكل والقتل للمحامي.

بعد أقل من أسبوع، حوصرت ضاحية دمشقية فطوقتها قوات من الجيش والأمن وكان ثلاثة من مجهولي الهوية قد اشتبه في اغتيالهم للأستاذ، اختبؤوا في بيت ريفي فأسرعت القوات إلى الإحاطة بالمكان فلم تترك للهرب منفذاً . وتبادل الطرفان إطلاق الرصاص، ولكن القنابل اليدوية ومدافع البازوكا هي التي هدمت أحجار المنزل على رؤوس الثلاثة وأجسادهم، وهي التي حسمت المعركة. ونقلت جثث الثلاثة، الذين كانوا من الشباب، لتستقرّ في المشرحة.

وتلقى عبد القادر الحلبي إشعاراً من جهة أمنية بضرورة القدوم الى العاصمة، وذلك من مسؤول في وزارة الداخلية، وإذا ما علم إبراهيم أصرّ على اصطحابه وكان الاثنان في طريقهما الى الموعد يتناولان في سرهما عن سبب تلك المقابلة. إبراهيم يقود السيارة والأب صامت، في منتصف الطريق قال إبراهيم:

"يخيّل إليّ أنك لم تستدع إلاّ بسبب الاستعدادات لتكريم رجال الثورة أيام الاحتلال الفرنسي".

وفرّج عبد القادر عن صمته الحائر ليقول:

"أعتقد أن وزارة الدفاع هي التي تستعد للتكريم".

وما لبث أن استعاد السباحة في بحر الماضي فصارع أمواجه. فقد زوجه أم الخير، ومن بعدها جليلة، واختفى ابنه إسماعيل الذي ادعى رجل أنه سالم يعيش في قرية لبنانية. توقف عند إسماعيل ليتساءل إن كان استدعاؤه إلى دمشق ليقال إنه تمّ القبض عليه كهارب من الخدمة. قال إبراهيم عند أبواب الوزارة:

"ما زلت أتصور أن هدف الزيارة هو لتكريم المجاهدين".

ودارت في خيال عبد القادر الحلبي صورة الأيام في جبل الزاوية، فحدّث نفسه:

"لو أن تلك المرحلة استمرت لكنت أستحقّ أن أكرَّم مع المجاهدين!" .

استقبل مسؤول كبير القادمين من حلب بترحيب متحفظ. ومن ثم توجّه بالحديث لعبد القادر يسأله عن العلاقة التي تربط عبد القادر الحلبي بالمدعو (أبو عبيدة) الذي تبين لنا اسمه وهو إسماعيل الحلبي، فما كان إلاّ أن هتف الأب بفرح:

"هل عثرتم على ولدي، هل أستطيع رؤيته؟".

وسأل إبراهيم الذي توجّس شراً:

"لا بد أن أخي موجود في مكان عندكم".

المسؤول يتأمل الرجلين، وامتدّت يده الى الهاتف ليأمر أحدهم بالحضور فوراً. قال للقادم أن يصطحب السادة من أهل حلب للتعرف على أبو عبيدة.

وفي الطريق كان السؤال الملحّ على عبد القادر يتعلق بما سمي أبو عبيدة، وإما إبراهيم فقد لعب الفأر في عبّه، فلم يستطع أن يتخلص من تشاؤمه. الاثنان صامتان، لكنهما لم يستطيعا الفرار من الحيرة القاسية. بعد قليل توقفا أمام مبنى قديم قام على حراسته عدد من رجال الشرطة. وقادهم المرافق في ممر تحت الأرض فوصلوا غرفة فُتحت لهم. كانت هناك خزائن حديدية، فُتحت إحداها وسُحب مجرورها التي تتبين أنها ثلاجة، فظهرت جثة شاب. الوجه تملأ نصفه لحية، وأما المشهد الذي انكشف للأب وابنه فكان معروفاً لديهم. هو إسماعيل ومن غير إسماعيل الذي لم يغيّر الموت فيه شيئاً. هتف الأب بضعف:

"ماذا فعلت بنفسك يا إسماعيل؟".

وملأت الدموع عينيه، وتهاوى فأمسك إبراهيم به.

وفي العودة إلى المسؤول، مكثا في غرفة السكرتير لفترة حسباها دهراً، واذا ما سُمِح لهما بالدخول قال المسؤول إن ابنك من لُقّب بأبي

عبيدة، فأطرق الحلبي برأسه متسائلاً إن كنت سأستلم جثة ابني إسماعيل لأدفنه، فما كان من المسؤول إلاّ أن قال:

"غير مسموح لك، فالتحقيق ما زال مستمراً للتأكد من أعوان الارهابيين الثلاثة، يؤسفني القول بأن ابنك قاتل، لذا سيدفن في مقبرة لن تدل عليه".

وقال المسؤول واقفا، كمن ينهي اللقاء:

"نتوقع أن نكشف عن محاولات إرهابية أخرى، ونرجو أن لا يكون أحد من الأقارب له علاقة".

استمر الصمت في الطريق إلى حلب. الاثنان لا يريدان ان يفصحا عن مقتل إسماعيل. هو الحزن الفاجع الذي تحكم في أنفاس الحلبي وابنه، فلا يسمح لهما بالإحاطة بهول المصيبة، وهما يفكران بأمنية واحدة:

"لو أن إسماعيل ظلّ مفقوداً أو هارباً، ولم تكن له علاقة بأي إرهاب".

واحترمت خديجة صمت زوجها الذي استمر إلى صباح اليوم التالي. لم يقصد الخان عبد القادر كعادته، بل توجّه سيراً على الأقدام إلى قبر ابراهيم هنانو. ضريح الزعيم في حديقة قامت على حراستها أشجار السرو السامقة. وقبر هنانو محاط بقبرَي سعد الله الجابري والجندي المجهول، فوقف الحلبي أمامهم مطأطئ الرأس، وهو يقرأ الفاتحة هامساً. خاطب الزعيم الذي لم يقابله:

"سيدي، اغفر لابن عبد القادر الحلبي الذي شرفه قتال الفرنسيين تحت لوائك، وأما إسماعيل الذي جاء من صلبي، فقد وقع في فخّ الخديعة، وقُتل دون قضية".

وقال عبد القادر جاثياً على ركبتيه عند الضريح:

"واغفر لي أني لم أزرك من قبل، فقد شغلتني عنك الحياة بأطماعها وهمومها".

وآنذاك لم يعلم الحلبي إن كان بكاؤه في تلك اللحظات على فقد إسماعيل، أم على انشعاله عن الزعيم، أم انه التفكير من عدم زيارة رجل أمضى حياته يناضل من أجل تحرير البلاد.

-٣١-

لقاء الجمعة العائلي عقد بعد أيام في الدار، وأعقبه آخر دون أن يكشف السر. عبد القادر مع ابنه إبراهيم استطاعا أن يخفيا مقتل إسماعيل، فكانا يحافظان على الحزن مكبوتاً، ولم يُنطق بكلمة أو إشارة. وكانت خديجة قد سألت ذات مرة عن سبب الزيارة السابقة لدمشق، فكان الجواب هو من أجل وداع صديق. وإذا ما تعاقبت الأيام تناقل الناس أخبار اغتيالات وقعت في أكثر من مدينة. جماعات دينية متطرفة نشطت في إقلاق راحة الحكومة، وعملت على تصيّد عدد من رجال أحزاب وعلم وفكر.

وكان إبراهيم قد استمرّ في مكتبه إلى وقت متأخر من الليل. انصرف كاتبه بينما بقي هو يراجع أوراق الدعوى التي كان الغد موعداً لها. سمع جرس الباب فتوجه منه ليفتحه، وكان ملثّمان يسدّان فتحه الباب يشهران خنجرين هائلين، فانقضا بهما على ابراهيم. كانت خبرته السابقة في الأمن قد جعلته يتفادى الطعنات. وقد بدا ان الملثمين لم يلجآ إلى المسدسات حرصاً على عدم إثارة ضجة في العمارة السكنية. وإذ كشف ابراهيم عن لثام أحدهما، تبين له أنه لم يتجاوز العشرين من عمره، فتذكر إسماعيل. رجع ابراهيم مسرعاً الى خزانة يخرج منها مسدساً احتفظ به طويلاً دون استعمال. شهرَ المسدس في عودته ليهدّد به الملثمين، لكنهما هربا.

كان إبراهيم قد أصبح في مجلس نقابة المحامين، وهو المستقل الوحيد كمرشح يفوز في الانتخابات لذا لم يكن هناك من مبرر للاغتيال. هكذا قال عبد القادر الحلبي لابنه بعد أيام، ولكنه اهتدى فجأة الى فكرة نبتت عنده، خاف ان يفصح عنها لفترة قصيرة، الاّ انه ما لبث ان حكاها ليقول:

"أنت لم تكن في حزب ما، كما لم يكن لنجاحك في انتخابات النقابة سبب في محاولة الاغتيال. ولا أظنّ أن لعملك القديم في الشرطة أو الأمن دوراً في ذلك. بظني يا إبراهيم أن الأمر يتعلق بشيء له علاقة بمواقفك التي لم تتردد في ذكرها أو إعلانها".

سأل ابراهيم عن قصده بذكر المواقف، فكان الجواب:

"تكرر في عديد من المناسبات انتسابك إلى العقلانية، وبالأحرى العلمانية. ويبدو ان مشكلة المتدينين تكمن في عدائهم لكل ما يمت بصلة الى العلمانية".

"ولكن العلمانية لا تعني العداء للدين. هي التزام باعطاء ما لله لله وما لقيصر لقيصر، اعني ان الحياة المدنية التي تشكل العلمانية عمادها لا تمسّ عقائد الناس.

وبينما توقف إبراهيم عن كلامه، جعل عبد القادر يقول:

"وهل يمكن للجماعات المتعصبة أن تفهم أقوالاً كهذه؟".

كان الوالد يفكر والهموم تحاصره. قال:

"لا أريد أن أفقد الولدين. أحدهما أبحر في تيار التعصب، والآخر يسبح ضد التيار".

وقال الحلبي مقترباً أكثر من ابنه:

"ما عادت أحوال البلد بقادرة على احتمال مثل افكارك. احتفظ بها لنفسك يا ولدي".

وكان إبراهيم يهمس بصوت مسموع:

"بات الزمن يتراجع الى الماضي. أأرثيك يا مستقبل!" .

احتلت صفية ركنا في غرفة والدها الواسعة. طالبة كلية التجارة تراجع وتدقق في حسابات الخان ومعمل العلف، وكانت تحتفظ بحسابات مصنع الأزميرلي الذي كان عبد القادر شريكاً فيه. وقبل

فترة من تخرجها، انتقلت إلى غرفة خاصة، فكانت تشارك في كافة الأعمال المحاسبية والإدارية. كانت المرأة الوحيدة بين كافة العاملين قد منحت حق تمثيل عبد القادر الحلبي في حضوره وغيابه. وتعامل الجميع معها باحترام لا لكونها ابنة الحلبي، بل إن مؤهلاتها دفعتهم أيضاً إلى ذلك. كان العمال والزبائن يخاطبونها بالست صفية، فوجد والدها نفسه يفعل الأمر ذاته. كانت الست صفية في الخان كما تعوّد مخاطبتها في الدار.

وخلت شوارع حلب من المارة إلاّ قليلاً، وقد حدث ذلك منذ ساعات الصباح، فمنذ دخول الجيش بجنوده ودباباته إلى المدينة لجأ الناس إلى بيوتهم، وأُقفلت معظم الدكاكين، وامتنع الكثير من الالتحاق بأعمالهم. كانت قوات الجيش قد أعلنت الحرب على جماعات التطرف منذ انتشار أعمال التخريب والاغتيال بشكل واسع. ولهذا دُهمت المنازل تفتيشاً عن السلاح، وكانت دار الحلبي واحدة من تلك التي نالت نصيبها من التفتيش.

وفي صباح باكر سُمع ضرب بأعقاب البنادق على باب الدار. هرعت (فاته) لتفتحه، فإذا بالجنود يتدفقون بأسلحتهم على الحوش. خرج عبد القادر من غرفة المربع مذعوراً ليشاهد المسلحين في كل زاوية من فسحة الدار. نودي على الجميع، وهكذا اجتمعت العائلة في صحن الدار يصطفون أمام قائد الجنود. هو يسأل عبد القادر ليدل على كل فرد من أهله، فقال يقدم عائلته:

"زوجتي خديجة وطفلها القاسم، ابنتي صفية خريجة التجارة وجمال طالب في الجامعة، زينب، فاته تعمل عندنا، وأنا أدعى عبد القادر الحلبي صاحب خان للمنتجات الزراعية. وأمامكم غرف الدار وأقبيتها تفتشونها كما تشاءون".

انتشر الجنود منتشرين في كل الأرجاء، من غرف ومطبخ وأقبيه. وانتقلوا من المربعات الثلاثة إلى السطح. بحث التفيش في الأثاث والاسرّة والكتبيات، فاستمرّ ذلك البحث لأكثر من ساعة. وإذ وضع جندي أمام القائد مجموعة صغيرة من الكتب تفحصها. العناوين دلت على ماله علاقة بالتاريخ والسياسة ومستقبل الإسلام، منها ما هو مؤلف أو مترجم، فأمر القائد أن تُصطحب معهم للتنقيب فيها. وأعلن جندي آخر عن خلوّ الدار من الأسلحة، فكان الأمر بالانسحاب.

عائلة الحلبي تتبادل النظرات المتسائلة، وكان عبد القادر هو مركز العيون التي تبدأ به وتنتهى بكل واحد من أهل الدار. كان التعليق الأول لصفية في قولها:

"ألا يراعي الجنود سمعة رجل اسمه عبد القادر الحلبي؟".

فتبعته آراء وملاحظات من البعض وقد تناولت خيبة التفتيش، كما حملت السخرية بعثور الجنود على كتب حملت في صفحاتها المتفجرات. وقف عبد القادر يقلب فكره، فتساءل في سرّه إن كانت لابنه إسماعيل الراحل علاقة في تفتيش الدار، وان كانت الدار قد

وضعت عليها شارة الاتهام. إلاّ أنه عاد بنفسه إلى الزوجة والأبناء منادياً على (فاته):

"ليكن إفطارنا اليوم على مبدأ خمس نجوم".

وتساءلت المرأة عن معنى تلك النجوم والتي لم تدرك معنى عددها.

-٣٢-

أصرّت العائلة على الاحتفال بميلاد عبد القادر الحلبي الذي قيل إنه بلغ الثمانين منذ أشهر. واجتمع الكل من حوله يساهم في فرحهم هذا الهدوء الذي عمّ المدينة. أطفئت الشموع، وبينما انجرف الكل في الغناء له، جعل يتفحّص الوجوه. ابراهيم وليلى زوجان بلا أبناء، ولكن احتضانهما للأخوة بات تعويضاً. عائشة وطالب وابنهما سعد الذاهب الى شباب جميل. الستّ صفية التي أصبحت أهمّ شريك له وترفض العرسان الذين يلاحقونها دون طائل، فالست لم تجد بعد رجلاً يليق بها. جمال الوديع وزينب الجميلة، وخديجة مع ابنها الفتى. وقال الحلبي فجأة:

"كنت فقيراً، ولكني جمعت ثروة لها قيمة بين الناس. لكن المال لا يعنيني في شيء فأنتم ثروتي. بالعلم الذي سعيتم إليه، وبروح العصر التي تلبّستكم. أحبوا بلادكم، وأحبوا بعضكم

بعضاً. وأنا أعترف أمامكم بأن خديجة لم تكن لكم زوجة أب، فهي أم وأخت ورفيقة درب".

وسكت عبد القادر عن الكلام الذي أخرج ما بداخله، وتحول مع الأهل غارقين في صمت عكس ذهولاً في وجوههم. وكان إبراهيم يفكر إن كانت خطبة وداع تلك، وأما عائشة مع زوجها طالب فكانا يفكران في كشف كامل عن صحة عبد القادر.

سلام المحارب

يراجع نفسه

توقف المحارب عن متابعة الكتابة في السيرة الحلبية. كان يفكر في المصير الذي سيذهب إليه عبد القادر الحلبي، كما أنه يحاول أن يتابع مستقبل أفراد أسرته. وفجأة تساءل إن كانت تلك السيرة قد استوفت حقها، وأن عليه أن يعيد كتابتها تلفزيونياً بالمشاهد والحوار بعد أن توافق على الحكاية أجهزة المحطة الفضائية. قرّر أن تتوقف السيرة عند ما وصلت إليه، وأن يرسلها كما هي بانتظار ما ستبديه المحطة من ملاحظات.

وبانتظار الصبية التي ستعمل على طباعتها بالكومبيوتر، عاد المحارب إلى حياة طبيعية خالعاً عنه رداء الكاتب. يجول في أرجاء المنزل والحديقة. يستسلم للنوم، بعد طعامه ويشرب القهوة. يعتني بنباتات الحديقة فتخرج له سعاد من بين الأزهار وأوراق الشجر. وفجأة تطلّ عليه زوجات عبد القادر الحلبي، فيحس بأن ذلك الرجل

ما عاد غريباً عنه، وحدث أن المرآة قد عكست صورته، وما عاد يميز نفسه من بطل السيرة، فتساءل إن كان يقارب الحلبي الذي ابتدأ حياته منخرطاً في ثورة تقاوم الاحتلال، وكانت خطوات مستقبله تبشر بثروة مالية وأخرى عائلية، وصحا المحارب على حياته التي فقد فيها ارتباط الأسرة، فكان وحيداً يمشي في ليل صحرائه التي باتت سماؤها بلا نجوم. كان سلام المحارب يعيش حياة أخرى أثناء كتابة السيرة الحلبية، وما أن توقف عنها حتى عاد وحيداً كما كان.

الوحشة من جديد. وإذا ما توقف عن كتابة السيرة اكتشف أنه يسقط هاوياً في حفرة لا قرار فيها، وذات يوم مدّ له عبد القادر الحلبي حبل النجاة، ليصبح أمامه وجها لوجه. أنفاس الحلبي تلاقي وجهه وهو يقول:

"افترض أني أكبر منك سناً، فلِمَ ضعفك هذا؟".

"لم أكن ضعيفاً، ولن أكون".

"ألا يفترض بمن كتب السيرة في أشهر قليلة ليغطي بها تاريخاً طويلاً، أن يكمل المشوار؟".

"أي مشوار؟ أم أنك تريد أن تبلغ من العمر قرناً، وأن تزوّج الأولاد والأحفاد، وأن تراقب الأحداث كشاهد على بلد وما سيؤول

الحال إليه في المنطقة والعالم. لنكن واضحين يا عبد القادر الحلبي فكتابتي لسيرتك لم تكن تاريخاً، بل إنها مجرد كتابة للتلفزيون واعترف بأنها حكاية تريدني العودة إلى الكتابة وملء الفراغ".

غضب الحلبي وتجلدت كلماته بقسوة:

"هل كنت نموذجاً لواحدة من حكاياتك، وهل كانت السيرة مخترعة؟".

وأطلّ شاب برأسه على اللقاء الذي جمع المحارب بالحلبي، ويسأل متخابثاً إن كان المحارب يستطيع أن يستدل عليه، فما كان من سلام إلاّ أن صاح قائلاً:

"لا بد أنك إبراهيم ابن عبد القادر. نعم فأنت إبراهيم".

"أنت دقيق الملاحظة يا سيدي، وأسألك كيف أنقذتني من عدوان الإرهاب".

"بخبرتك أنت في القتال، وقد اكتسبته من عملك في الشرطة والأمن".

"أعتقد أن مشاهداتك للأفلام السينمائية قد دفعتك إلى تصور ذلك".

وخيم سكون عجز فيه المحارب عن الإجابة أو التعليق.

وخرجت خديجة عليه من صورة سعاد. أدرك سلام المحارب أبعاد اللعبة التي يخطط لها أبطال السيرة الحلبية فحاول أن يستعدّ لها. بادر خديجة بالسؤال وهو جالس على المقعد بمواجهه الصورة:

"ألم أكن صادقاً معك. لقد كنت سيدة حقيقية ساعدت زوجها، بل هي التي ساهمت في جعله عصرياً، وانتقلت به من زمن إلى آخر".

"لا أنكر تقديمك لي كابنه وفيّه لأمها. وكامرأة حاولت الكشف عن رغبة زوجها في التقدم، إلاّ أنك قلّصت دوري كزوجة يمكن أن تصبح نموذجاً. اقول انك لم تحجبني تماماً، بل إنك لم تبرز دوري في مساندة زوجي وعائلته. ألم يكن هدفك من السيرة الحلبية إعطاء صورة عن العائلة المعاصرة؟".

لم يكن هرباً من أطياف الشخوص التي أطلت عليه من صفحات السيرة، بل ان سلام المحارب الذي جال في أرجاء المدينة بحثاً عن الأماكن التي جاء ذكرها في السيرة الحلبية. لم يكن المحارب قد زار أو رأى خاناً منذ أكثر من نصف قرن، فابتدأ بزيارة واحد يقع في (باب الحديد) . دخله متجولاً فلم يشاهد فيه أيّا مما تخيله في السيرة، فهل خرجت كل تلك الشخصيات من مخيلته أيضاً، أو أن خياله هو الذي صنعها؟

في الجولة التي دار في أحياء من حلب القديمة، كانت ابتسامة تظهر على وجهه من حين لآخر، فالحلبي وعائلته قد يكون وهماً اخترعه، كما أن الآخرين في السيرة مع الواقع والأحداث، ألحقت بهذا الخيال. أثار استغراب المحارب وجود مكتبة في تلك المناطق. وقف يتأمل واجهتها الزجاجية التي تعرض عدداً من الكتب، دينية وتاريخية، وقليلاً من الروايات. وتساءل:

"ما مقدار الخيال في تلك الكتب، أم أنها تعبر عن حقيقة تفكير كاتبها؟".

مشاعر تتقلب عليه في طريق العودة، وهي تبحث عن مقدار مصداقية السيرة الحلبية. إلاّ أنه ما إن فتح الباب، ودخل المنزل متعباً رأى ليلى في الصالة تقف منتصبة لتقول:

"لم تعطني حقي كفتاة فلسطينية. الطفلة التي دفعتها الهجرة إلى الفقر في مخيم لا يصلح أن يكون أسطبلاً. المرأة التي وجدت خلاصها في الزواج من إبراهيم".

وسمعها تقول في العتمة:

"حملت وطني في صدري، وبالرغم من حبي لزوجي وحبه لي، فجرح فلسطين مازال ينزّ".

وكانت ليلى في كل مكان يكاد سمع المحارب يلاحق صوتها ليحدد موقعها. قالت:

"هل كتب علينا إلاّ ننجب أولاداً حتى لا يعرفوا الهجرة. وهل قررتَ ألاّ تكون لنا خلفة تعمل على استعادة ما ضاع لي من أرض".

وسمعها المحارب تردد في فضاء المكان:

"تباً لك يا سلام المحارب".

وتوالت الأيام القاسية عليه، ولكنها هادئة.. وكان الفراغ الذي لم تكن فيه فرصة لفعل شيء من قراءة أو خروج من المنزل. وحينما أحضرت الصبية نسخة جاهزة من السيرة، وضع أوراقها على مكتبه لا يعيرها اهتماماً.

في اليوم الآخر، دخلت أشعة الشمس من شقوق الستارة لتنبّه إلى حاله. كانت ليلته قد قضاها في غرفة المكتب وهو يحدّق في الظلام، فلم يعرف النوم وكان القلق يرافق يقظته، وكان الفراغ حيادياً. نظر إلى الأوراق القادمة، فلم يقلّبها من أجل تصحيح أخطائها. هو لم يقترب منها وكأنها لا تعنيه. رفع الستارة عن النافذة فتدفقت الشمس على وجوده، وهكذا ابتدأ يصحو من ذلك الفراغ الذي احتلّ روحه. اليقظة تسللت في جسده، وامتدت يده إلى قلمه تكتب على الصفحة البيضاء:

السيد مدير المحطة الفضائية.

من بعد التحية، فقد تمّ اختياري من بين الكتاب لإعداد المسلسل الذي ستنتجونه، وأنا إذ كنت اشكر لكم هذه الثقة، أعلن عجزي عن وضع مخطط لهذا المسلسل. المشكلة هي في الفكرة التي لم تتوفر لي، وأظنها لن تتوفر. كنت أظن أني سأعود إلى الكتابة من جديد، ولكني فشلت. نهاية الإنسان موت الجسد، وأما نهاية الكاتب فموت الأفكار الكاملة. هل أعلن عن نهايتي، أم أن الأمر لا يعنيك. سيدي. لا أخفى عنك سراً، فقد أمضيت شهوراً في كتابة السيرة الحلبية، وأعتقد أني فشلت، فمزقتها، فهل أصبت. وداعاً لأيام الكتابة.

مع الاعتذار: سلام المحارب

وخرج إلى الحديقة. مشى في الممر تحفّ به نباتات وشجيرات. وإذ وقف أمام شجرة الجوز التي زرعها منذ سنوات طويلة وابتدأت تثمر، اكتشف أن أوراقها بدأت بالتساقط. توقف متأملاً بؤس الشجرة. همس سلام بذعر راجياً أن تبقى له هذه الشجرة التي كان المارة يقطفون ثمارها، وفجأة داهمته نوبة الربو.

حلب ٢٠٠٩/٧/٤

وقائع وتواريخ ما كتب في حكاية السيرة الحلبية

عبد القادر الحلبي: ١٩٠٥-

زوجته أم الخير: الوفاة ١٩٤٩. أولادها:

إبراهيم ١٩٣٦- عائشة ١٩٣٨-

زوجته جليلة : الوفاة ١٩٦٧ . أولادها:

إسماعيل ١٩٥٢- أوائل الثمانينيات

صفية ١٩٥٤-

جمال ١٩٥٦-

زينب ١٩٥٨-

زوجته خديجة : ولدها:

القاسم ١٩٧٤-

الطبعة الأولى / ٢٠١٠

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



www.syrbook. gov.sy
مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٠
سعر النسخة ١٤٠ ل.س أو ما يعادلها